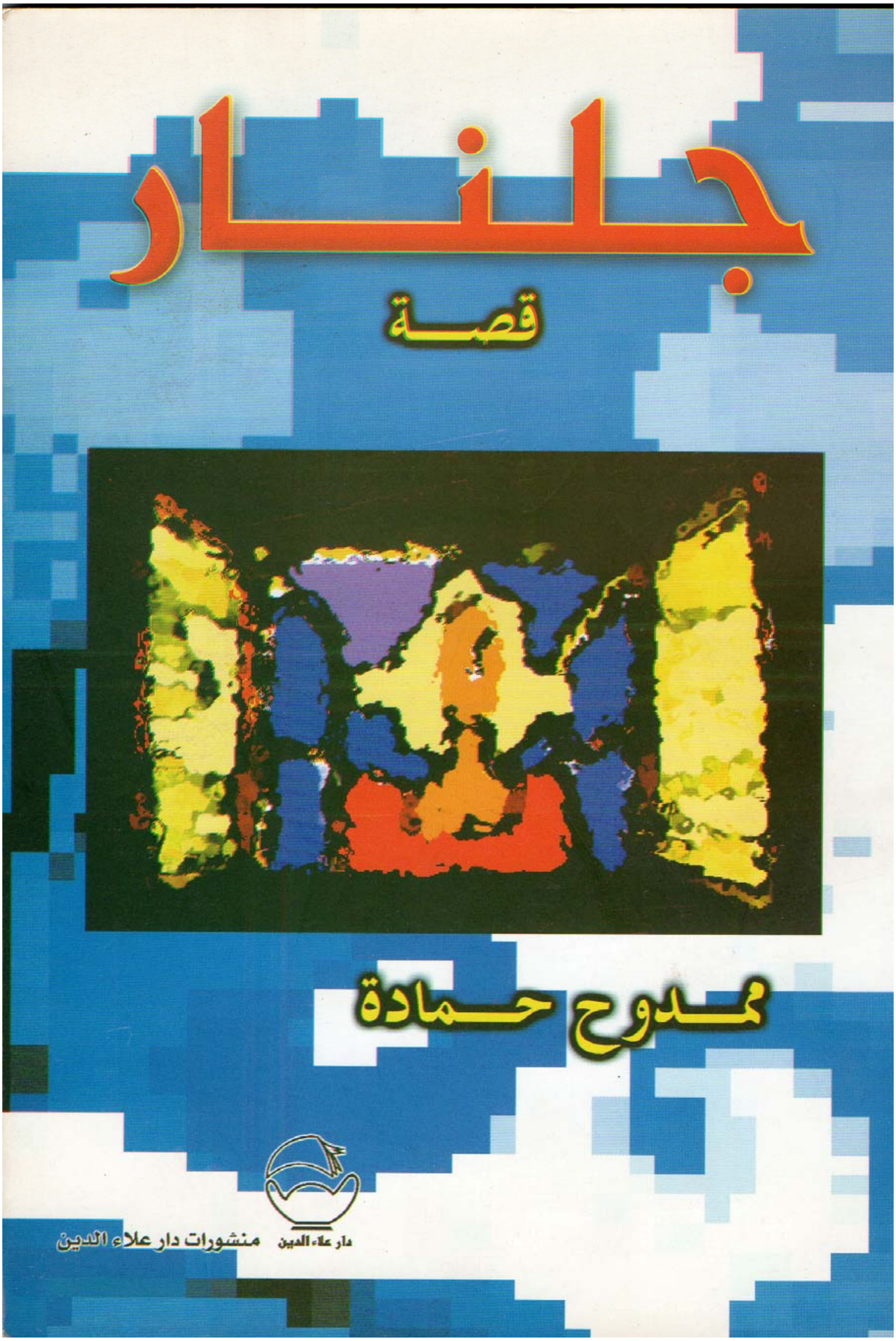
جلنار
قصة
ممدوح حمادة
دار علاء الدين
منشورات دار علاء الدين

جلنار

- **جلنار:** قصة / ممدوح حمادة.
- **دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة**
دمشق، سوريا، ص.ب: ٣٠٥٩٨
هاتف: ٥٦١٧٠٧١ ، فاكس: ٥٦١٣٣٤١
- **الطبعة الأولى:** عام ٢٠٠١ عدد النسخ ١٠٠٠ نسخة.
- **جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.**
- **الإخراج الفني:** دار علاء الدين.

قبل سبعة وأربعين عاماً شاهد يوسف فتاة شقراء الشعر بيضاء النحر نافرة الصدر نحيلة الخصر ترتدي ثوباً أحمراً وتقف خلف نافذة بيتها المطلة على الشارع العام، لم يصادف يوسف في حياته أنثى بهذا الجمال الخارق، لقد كانت بحق كتلك التي يرسمها المراهقون في أحلامهم، كانت امرأة مستحضرة من الخيال.

وقف يوسف في وسط الرصيف المقابل يتأمل تلك التحفة غير عابئ بالمارة الذين كانوا يبعدونه عن طريقهم دافعين إياه من الأمام تارة ومن الوراء تارة أخرى، ولم يفق من سحرها حتى بعد أن أغلقت النافذة، فقد بقيت تتهيأ له حتى بعد أن اختفت من هناك، وربما كان يأمل أن تنفتح النافذة من جديد وتعود تلك الفتاة للظهور منها مرة أخرى، ولو أن سيارة عابرة لم ترشقه إطاراتها بالماء المتجمع عند حافة الرصيف لما أفاق يوسف من هذا السحر أبدا.

إذا قلنا إن يوسف قد وقع في الحب من النظرة الأولى نكون قد أجحفنا بحق تلك المشاعر التي اعتملت في نفسه، لأن يوسف لم يقع في الحب، لقد شعر بشيء أعمق من ذلك بكثير، فقد أخذ قلبه يخفق بشكل غريب وامتلك نفسه إحساس لا يمكن وصفه بأنه حب فقط ، إحساس لا تحتوي المعاجم والقواميس على مفردة تعبر عنه، إحساس يشعر به إنسان للمرة الأولى، ولذلك فقد

قرر أن هذه الفتاة ستكون زوجته، ومع أنه كان يفضل أن يعيش معها قصة حب عاصفة تفوق ما حدث لليلى والمجنون إلا أنه قرر أن يرسل والدته في طلب يدها لأن جلنار– كما كان قد أسماها– ليست بضاعة كاسدة، وكل لحظة تأخير ربما تكون الفرصة الضائعة فلا بد أن آلاف الرجال مغرمون بها وربما يسبقه إلى نعيمها رجل آخر يقفل بوجهه أبواب الجنة الموعودة، وإن حدث ذلك فإنه سيصبح المجنون الثاني في تاريخ الحب العربي ولكن الفارق الوحيد بينه وبين المجنون الأول هو أن ذلك كتب القصائد التي خلدته وخلدت ليلى، أما هو فسيضعونه في مشفى الأمراض العقلية ويتركونه يتعفن هناك دون أن يسمع بقصة حبه لجلنار أحد، هذا إذا لم يتركوه يهيم على وجهه في الشوارع دون أن يعبأ له شخص.

ولكنه عندما طلب من أمه أن تفعل ذلك صرخت في وجهه مطالبة إياه بالتخلص من الرقع التي تغطي مؤخرة بنطاله قبل التفكير بالزواج، ومع أن الرقع

لم تكن قد خيطت بعد على مؤخرة بنطال يوسف إلا أنه كان قريباً جداً من تلك المرحلة وكان على وشك وضع تلك الرقع لإغلاق بقعتين مهترأتين أخذتا تتشكلان على قفا بنطاله الأجرب العتيق، فقد كان عاطلاً عن العمل وعلى عاتقه تربية أخواته الثلاث اللواتي تركهن له والده الذي سافر إلى أمريكا اللاتينية طلبا للرزق ثم انقطعت أخباره وقيل إنه قد مات، ولأنه كان يدرك أن والدته كانت على حق في هذا الموضوع فقد صمت يوسف وتوجه إلى غرفته.

رغم أن يوسف كان قد أغمض جفنيه عندما استلقى في سريره إلا أنه لم يتمكن من النوم، فقد تسللت جلنار إلى ما تحت جفنيه، كانت النافذة تبدو له كإطار والفتاة لوحة رائعة في داخلها، وفضل يوسف ألا يفتح عينيه كي لا تهرب تلك اللوحة من هناك، وأوصد عليها أبواب مخيلته حتى الصباح، وعندما أشرق الصباح فإن يوسف لم يستيقظ لأنه لم ينم أصلا، فحين أرسل الفجر

خيوطه الأولى نهض من فراشه وتوجه إلى تلك النافذة دون أن يغسل وجهه تجنباً لإضاعة الوقت.

عندما وصل يوسف إلى قبالة النافذة وجدها مغلقة، فأخذ يبحث عن مكان يجلس فيه دون أن يلحظ أحد أنه يراقب النافذة ثم أخذ ينتظر تلك اللحظة التي تفتح فيها جلنار مصراعيها اللذين أصبحا منذ مساء الأمس مصراعي قلبه، ومضت أكثر من ساعتين قبل أن يشاهد الستائر تزاح والنافذة تنفتح، ولكن ليس لتطل منها جلنار كما كان ينتظر، وإنما لتطل منها امرأة عجوز في السبعين أو أكثر من العمر، ورغم أنه أصيب بالصدمة لذلك الأمر إلا أن أملا تولد في داخله بعد أن انفتحت النافذة، فقد تأتي جلنار لتطل من النافذة أو تخطر خلفها فيكحل عينيه برؤية وجهها بعد تلك الليلة الطويلة المضنية.

لم يبق أحد من سكان المنزل لم يطل من تلك النافذة في ذلك اليوم، فبعد انصراف العجوز بقيت النافذة

خالية لساعة من الزمن، ثم أطل منها رجل له شاربين أشعثين، نظر إلى الشارع نظرة فضولية ثم عاد إلى الداخل، وبعد انصراف الرجل بساعة أطل طفل بقي في النافذة أكثر من ساعة يراقب الطريق، ثم أطلت المرأة العجوز مرة أخرى، وبعدها أطلت امرأة يبدو أنها زوجة ذلك الرجل ذو الشاربين الأشعثين، وتتالت إطلالات سكان المنزل ولم يبق غير جلنار التي حل المساء دون أن تطل أو تخطر خلف تلك النافذة، ولم يغادر يوسف المكان إلا بعد أن تم إغلاق النافذة، أغلقتها العجوز نفسها، التي فتحتها.

لشدة إرهاقه فقد كان يوسف يتوقع أنه سيغفو بمجرد أن يلامس خده الوسادة، ولكن ذلك لم يحدث فقد تمترس في عينيه أرق ثقيل وعاد لانتظار الصباح مرة أخرى .

كان الوقت يمضي وكأنه مكبل بالحديد وكاد يوسف يصرخ نتيجة لتقاعس الساعة وبرودة أعصابها ووجد نفسه في وضع أمرؤ القيس وأخذ يردد أبياته:

وليل كموج البحر أرخى سدوله
علي بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه
وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي
بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيا لك من ليل كأن نجومه
بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت في مصامها
بأمراس كتان إلى صم جندل

ولكن الصبر مفتاح الفرج، فبعد معاناة طويلة لا تقاس بمفردات الزمن أزاح الليل ستائره السوداء مفسحاً المجال للفجر كي يتسلل عبر النوافذ إلى بيوت الناس فقام يوسف وتوجه إلى المكان المطلوب، ولكنه في هذه المرة غسل وجهه ورأسه آمل أن يخفف ذلك من الصداع الذي أصابه بسبب التوتر وقلة النوم، وفي الوقت نفسه كي لا يغفو على الرصيف المقابل فتطل جلنار من النافذة وهو نائم.

بعد انتظار ساعة خالها يوسف عاماً كاملاً انفتحت نافذة الحياة، كما كانت بالنسبة ليوسف، وفي هذا الصباح، كما في صباح اليوم السابق، كانت العجوز هي التي فتحت النافذة، ومع أنه في قرارة نفسه أخذ يكن كراهية كبيرة لتلك العجوز إلا أنه أيضاً شعر بالامتنان لها لأنها تقوم بفتح النافذة.

بقي إطار النافذة فارغا من الوجوه لأكثر من ساعة قبل أن يشاهد يوسف حركة لخيال خلف الستارة التي لم

تزحها العجوز حتى النهاية، واختلج قلب يوسف ولكنه سرعان ما أصيب بخيبة الأمل بعد أن شاهد وجه الرجل ذو الشاربين الأشعثين يطل من خلف تلك الستارة ثم يختفي، وكما في اليوم السابق أيضاً فقد تكررت المسرحية نفسها حيث أطلت المرأة وألقت بنظرة فضولية إلى الشارع ثم اختفت وبعدها أطل الطفل وراقب حركة المارة لأكثر من نصف ساعة ثم انصرف إلى الداخل، ولم يبق سوى جلنار الوحيدة التي لم تطل من النافذة، وفي المساء أغلقت العجوز النافذة فانصرف يوسف وقد ركب الأسى قلبه كما يركب الفيل نملة.

ما أن لامس خد يوسف الوسادة هذا المساء حتى غط في نوم عميق، ولكن جلنار لم تفارق أحلامه لحظة واحدة، شاهدها في ثوبها الأحمر، ثم شاهدها تخرج من المنزل وشاهد نفسه يضمها إلى صدره ويقبلها، ثم شاهد نفسه يخلع عنها الثوب الأحمر، ثم استيقظ من نومه وذهب إلى الحمام ليغتسل.

في الساعة السابعة صباحا كان يوسف يقف أمام تلك النافذة لليوم الثالث على التوالي وكله أمل في أن تطل منها جلنار ترتدي ثوبها الأحمر، وعندما فتحت العجوز النافذة في هذا اليوم كاد يوسف أن يرجمها بحجر، فقد تهيأ له أنها إبليس تجسد لعينيه في البداية كصبية في ثوب أحمر وهاهو الآن يتقمص شخصية هذه الساحرة العجوز لكي يمعن في تعذيبه، ولكنه مع ذلك لم يفقد الأمل وتابع الانتظار، ولم يطل انتظاره إلى أن يطل الرجل ذو الشاربين الأشعثين من النافذة، فقد انفتحت البوابة وخرجت منها جلنار ولكنها لم تكن ترتدي ثوبها الأحمر وبدلاً منه كانت ترتدي فستاناً مزركشاً يغطي كاحليها، وفوقه كانت ترتدي قميصاً مزرراً حتى أسفل الذقن فلم ير يوسف عنقها كما كان يأمل، ولكنها رغم ذلك لم تبد أقل جمالاً مما كانت عليه في ثوبها الأحمر، فقد كانت جلنار من النساء اللواتي يزيّن أثوابهن لا من تلك اللواتي تزينهن أثوابهن، لقد كان ظهورها من البوابة

بمثابة العفو الذي انتظره محكوم بالإعدام فترة طويلة، فقد تهيأ له أنه كان ينتظر ذلك مئة عام لا ثلاثة أيام.

لأول مرة في حياته يقوم يوسف بمثل هذا الفعل، حيث لم يسبق له أن تعقب امرأة قبل الآن، ولذلك فقد شعر بما يشعر به المخبرون عندما يكلفون بأول عملية مراقبة لشخص ما، مع أن خطته التي رسمها كانت تقتضي أن يقترب يوسف منها و يعلن لها حبه فتطير هي من الفرح، إلا أنه كان يسير خلفها بحذر ويخشى أن تشعر بوجوده فيصاب بالحرج، ولهذا فقد حافظ على مسافة فاصلة تكفي للقيام بالمناورة إذا ما تطلب الأمر ذلك، فإن توقفت لأمر ما يمكنه متابعة السير قليلاً ثم التوقف بعد ذلك دون أن يبدو الأمر وكأنه مقصود، ولكن هذه المسافة بالذات هي التي جعلته يفقد إثرها، فقبل أن تدخل جلنار إلى سوق الحميدية التقى يوسف صدفة بزميل له لم يره منذ زمن بعيد فأخذ هذا يعرب عن شوقه لصديقه ويتذكر بحسرة تلك الأيام

الجميلة التي انصرمت ولن تعود واسترسل في ذلك إلى درجة المبالغة وأخذ يسأله عن أصدقاء قدامى ومدرسين علموهم في المدرسة وعن تفصيلات كان الزمن قد محاها من ذاكرة يوسف منذ وقت بعيد، أما يوسف فلم يكن يتذكر شيئاً في هذه اللحظة وإنما كان يوجه في داخله لهذا الزميل أقذع الشتائم ويلعن القدر الأحمق الذي ساقه له الآن تحديداً وفي هذا المكان بالذات .

من الطبيعي أن يوسف لم يدخل إلى سوق الحميدية بعد ذلك للبحث عن جلنار، فإن أقدم على هذا سيكون مثله مثل الذي يبحث عن إبرة في كومة قش، أو كما يقول المثل الذي يردده يوسف بمناسبة وبدون مناسبة أنه من الصعب العثور على قطة سوداء في غرفة مظلمة، خاصة إذا كانت هذه القطة غير موجودة في تلك الغرفة، فجلنار كانت قد خرجت من سوق الحميدية عندما كان يوسف لا يزال واقفاً مع ذاك الصديق، فلم يلحظها.

مضى أسبوع آخر لم يشاهد فيه يوسف جلنار، فلا هي أطلت من النافذة، ولا هي خرجت من المنزل، كما أنه اعتاد على العجوز التي كانت تفتح النافذة وتغلقها، واقتنع أنها جدة الفتاة وليست إبليس كما كانت أحقاده قد صورتها له.

وعندما خرجت جلنار بعد أسبوع من المنزل لحق بها يوسف من جديد، وفي هذه المرة كان أقل حذراً من المرة الأولى، فلم يترك أكثر من خطوتين بينه وبينها، وقرر أنه حتى لو قام والده من القبر وشاهده في الشارع فإنه سيتجاهله ولن يسلم عليه وسيتصنع أنه لا يراه ولا يسمعه، ولكنه في هذه المرة اكتشف أنه لا يملك أي خبرة في مجال النساء، فرغم قربه منها إلا أنه لم يتمكن من إيجاد وسيلة تمكنه من الاقتراب منها والتحدث إليها، وهكذا فقد رافقها يوسف إلى السوق وعاد معها إلى أمام منزلها دون أن يتمكن حتى من لفت انتباهها إليه.

أصبح الليل عدو يوسف اللدود فهو دائماً يداهمه قبل أن يتمكن من تنفيذ مخططاته التي كان قد رسمها لينفذها في النهار، لم يعد يذق فيه طعم النوم ولا طعم الهدوء، وإضافة إلى ذلك فَقَدْ فَقَدَ يوسف شهيته إلى الطعام، وخاصة في تلك الأيام التي لم يكن يشاهد فيها جلنار، وتكونت تحت عينيه مساحة زرقاء نتيجة السهر وكان كمن تلقى كدمة على كل عين، وبسبب امتناعه عن الطعام فقد خف وزنه بشكل ملحوظ وأصبح لعابه مرّ الطعم، كما أنه أصبح يدخن بنهم بعد أن كان ألد أعداء التدخين، ولذلك فقد اتخذ يوسف قراراً حاسماً بأنه في المرة القادمة سيفاتحها بالأمر وينهي هذا الجحيم الذي لا يطاق.

مر أسبوع آخر قبل أن تخرج جلنار من منزلها ويلحق بها يوسف، وعندما أصبحا في شارع غير مزدحم استجمع يوسف شجاعته واعترض طريقها بشكل يمكن القول أنه لا يخلو من الفظاظة.

-ماذا تريد؟

تساءلت الفتاة مندهشة لقطع يوسف الطريق عليها كما يفعل ذلك قطاع الطرق لا العاشقون.

شرح لها يوسف الأمر بمنتهى اللباقة، وأعلن عن حبه لها، وكان صوته أثناء ذلك يتهدج وقلبه يتقافز في صدره من جدار إلى جدار، أما جلنار فلم تبادله تلك اللهفة التي كان يحلم بها واكتفت بالقول:

-إن كنت تعرف منزل أهلي فلا حاجة لاعتراض طريقي.

-وهل أنت موافقة؟

سألها يوسف لكي يطمئن قلبه، فأومأت برأسها علامة الموافقة وتابعت سيرها.

رفضت والدة يوسف الأمر رفضاً قاطعاً في البداية ولكنها بعد أيام عندما لاحظت الوهن الذي أخذ يصيبه والنحول الذي يعاني منه جسده ، أدركت أنها برفضها هذا إنما أصدرت حكماً بالإعدام على ابنها الوحيد، ولأن حرصها على مصلحة ابنها كان السبب الوحيد لرفضها

فقد ارتأت الأم أن مصلحة ابنها تقتضي تزويجه من تلك الفتاة لا منعه عنها، ولذلك فقد طلبت منه العنوان وذهبت لخطبتها، أما هو فقد عاد الدم يجري في عروقه على الفور وتورد خداه و جلس إلى المائدة فور ذهاب أمه لتنفيذ المهمة المقدسة بالنسبة له، وتناول الطعام بنهم غير مألوف.

لم تلاق أم يوسف صعوبة تذكر في ذلك، فقد وافق أهل العروس على الفور ولكنهم طلبوا مهلة قصيرة للسؤال عن يوسف والتأكد من حسن سلوكه وأخلاقه، كما أنهم وضعوا شرطاً آخر، فهم أناس محافظون وعلى العريس ألا يقابل عروسه قبل ليلة الدخلة، وقد استغرب يوسف هذا الشرط الذي لم يجد له مبررا، فالفتاة تخرج من المنزل وتتجول بحرية ثم أن لباسها لا ينم عن أنها من أسرة متشددة، ولكنه رضخ لذلك الشرط لكي لا يخلق مصاعب هو في غنى عنها، ولكي لا يعيق اجتماعه بحبيبته شيء فقد طلب يوسف الإسراع بالزواج وإنهاء

الموضوع، خاصة أنه لن يتمكن من دخول منزل الحبيبة واللقاء بها رسمياً.

سأل أهل العروس عن يوسف وأعطوا موافقتهم النهائية، وفي مساء يوم الخميس كان يوسف مع مرافقيه أمام منزل العروس لأخذها من هناك إلى منزلها الجديد، وعندما سارت قدماه باتجاه باب منزل جلنار شده عمه من ذراعه وأشار له إلى باب المنزل المجاور.

استغرب يوسف الأمر ولكنه ظن أن منزل العروس ربما كان غير ملائم لاستقبال الضيوف فتبرع لهم الجيران بمنزلهم، وهذا يحصل في كثير من الأحيان، ولكنه عندما شاهد العروس أيقن أن والدته أخطأت العنوان، لم تكن الفتاة التي ترتدي ثوب العرس هي جلنار، كانت فتاة أخرى يراها للمرة الأولى في حياته.

عندما سيق باتجاه كرسي العروس شعر يوسف كما يشعر أي وحش جيء به من الغابة التي كان سيدها إلى قفص مروض للوحوش في السيرك، فرغم أن

عروسه كانت تجلس فوق كرسيها وقد أطرقت بالأرض خجلاً وشبكت راحتيها في حضنها إلا أنه كان يشعر بها تنهال على قلبه بالسياط، ولأول مرة في حياته اعترت يوسف رغبة بالموت، وكان طوال فترة العرس يشعر بالغثيان، وتهيأ له أنه مسجى في نعشه ولا يجلس قرب عروسه، وأن الناس يرقصون ويغنون في جنازته وليس في عرسه، ولكن الأوان كان قد فات لتصحيح الخطأ فالتراجع في مثل هذه اللحظة سيكون كارثة بالنسبة للعروس، ولو أنه لم يخش من التشكيك في رجولته لما اقترب من عروسه ليلة الدخلة أبدا. لم تكن غالية زوجة يوسف أقل جمالا من جلنار، ولم تكن الحياة معها متعبة أو مملة، فقد كانت امرأة تكاد تصل إلى حد الكمال، وكانت بالنسبة ليوسف أقرب صديق وأوفى رفيق، ولكنه لم يتمكن من حبها أبدا، فقد كان قلبه محتلا من قبل تلك الفتاة التي شاهدها تقف في النافذة وترتدي الثوب الأحمر، كانت جلنار هي الأنثى التي تتربع على عرش

قلبه، ولو أنه لم يتخيل وجها مكان وجه زوجته لما تمكن يوسف ليلة الدخلة من فعل شيء، ولما تمكن فيما بعد من إنجاب جميع أطفاله.

في كل مرة كان يزور يوسف وزوجته منزل أهلها كان يسترق النظرات إلى تلك النافذة، وكان يطمح إلى رؤية وجه الحبيبة ولكنه لم يكن يشاهد غير وجه تلك العجوز، وفيما بعد لم يشاهد تلك النافذة مفتوحة أبدا، كما أنه لم يشأ أن يسأل غالية عن اسم جارتها خوفا من جرح مشاعرها وإثارة شكوكها إضافة إلى أن أمره كان قد حسم فيما يخص جلنار بعد أن أصبح أباً، ولذلك فقد اقتنع بالاستسلام للواقع حلا لمأساته وترك زمام قلبه للزمن عله يمحي من ذاكرته إطار تلك النافذة.

توفيت غالية منذ عدة سنوات، ولم يفكر يوسف في الزواج بعدها أبدا، فهو مهما بحث لن يجد امرأة تحل مكانها، وخطرت على باله جلنار تقف في النافذة وترتدي الثوب الأحمر أكثر من مرة ولكن

ابتسامة جافة ارتسمت على شفتيه المتشققتين ربما سخرية من هذه الفكرة السخيفة، وتابع حياته مثل جميع المتقاعدين، تارة يذهب إلى المقهى الذي يمضي معظم وقته فيه يلعب النرد، وتارة يخرج للتنزه في المدينة على غير هدى وحيدا أو مع جاره كمال الذي كان هو الآخر متقاعد لا عمل يمارسه، وكان يوسف مثله مثل جميع المتقاعدين مهتما بنشرات الأخبار بشكل لا يعرف سببه وعند لقائه مع أي شخص كان يعيد على مسامعه ما كان قد سمعه للتو في آخر نشرة للأخبار، وكانت النشرة الجوية أكثر ما يثير اهتمامه، و مع أن الجفاف يضرب المنطقة منذ ثلاث سنوات فإن يوسف لم يكن يفوت نشرة جوية واحدة، وعندما يشوش عليه استماعه أحد ما أو يعيقه عن معرفة درجة الحرارة في مدينة ما، كان يغضب غضباً شديداً، فهو لم يكن مهتماً بدرجات الحرارة في البلد فقط، فقد كان يوسف يستمع بشغف إلى درجات الحرارة في جميع عواصم العالم، وكثيراً ما يذكر الفوارق بين

الأرقام التي أوردتها المحطات بشكل مختلف للدلالة على كذب وسائل الإعلام، وهذه مقولة يطرحها بعد كل خبر يرويه لجليسه حيث يقول مثلا:

- انفجار في الهند، مونتي كارلو قالت أن عدد القتلى عشرة، لندن قالت سبعة، صوت أميركا خمسة عشر، كلهم كذّابون يا أخي، يمكن أن الانفجار لم يحدث أصلاً.

وبسبب ولعه هذا فقد كان يوسف يَشْغَلُ جهاز التلفزيون معظم أوقات السهرة، ولذلك فقد كان على خلاف كبير مع أحفاده وابنه وزوجة ابنه، فهم جميعاً يتابعون الأفلام والمسلسلات وبرامج التسلية، وعندما يكون يوسف في البيت فقد كان يحرمهم من متعة مشاهدة أي فلم حتى نهايته، خاصة أن يوسف كان يكره جميع الأفلام والمسلسلات، ولحل هذه القضية فقد اشتروا له جهاز تلفزيون أبيض وأسود ووضعوه له في غرفته، ولكن يوسف أصر على مشاهدة الأخبار في جهاز التلفزيون الملون، فالصورة الباهتة في التلفزيون الجديد كانت تفسد

عليه متعة الأخبار، حيث يتوجب عليه التحديق بعمق لمعرفة من يقتل من ولكي يتمكن من تمييز الوجوه، ولهذا فقد نقلوا التلفزيون الملون إلى غرفته وأخذوا يتابعون برامجهم المفضلة بالأبيض والأسود.

كادت حياة يوسف تنتهي على هذا المنوال لو أن جاره "كمال" الأرمل المتقاعد لم يفاتحه ذات مرّة في المقهى برغبته في الزواج، وعندما استغرب يوسف ذلك وذكّره بأن عمره سبعين عاماً، رد عليه كمال قائلاً:

-وإن عشت مئة عام؟ أو مئة وعشرين عاماً؟ فهل تريدني أن أبقى خمسين عاماً أخرى وحيداً مثل كلب شارد؟

أجبر هذا السؤال يوسف على الصمت والاستسلام أمام حجة صديقه، فعلا من الذي يدري كم سيعيش؟ ليس أمراً مستحيلاً أن يبلغ الإنسان التسعين من العمر أو المئة أو حتى أن يتجاوز ذلك، وليس من الضروري أبدا أن يضع الإنسان نفسه في خزانة الأرشيف عندما يبلغ

السبعين من العمر، ولذلك فقد وافقه يوسف على رأيه وتمنى له التوفيق، ثم ذكر له خبراً سمعه:

-ذكروا اليوم في إذاعة الشرق أن رجلاً سعودياً له من العمر مئة وعشرين عاما تزوج من ابنة عشرين.

وقد كان كمال يتمنى أن يفعل يوسف مثله، فقد كان يخشى أن يتعرض للسخرية لأنه العجوز الوحيد الذي سيتزوج في الحي، ولذلك فقد استغل الفرصة للتغرير بيوسف وتحريضه على ذلك:

-وأنت؟ لماذا لا تتزوج؟ إن نشرة الأخبار لا تغني عن المرأة، أقسم لك أنك إن تزوجت فستندم على كل ليلة قضيتها في الفراش وحيدا.

-يا رجل، هل مثلنا في هذا السن يصلح للفراش؟ أقسم لك أنك بعد أن تتزوج ستندم من أول ليلة لأن العرق سيتصبب منك خجلاً من زوجتك التي في الفراش؟

-ألا ترى في المرأة سوى شيئاً واحداً؟ يكفي أنك ستجد من تتكلم معه بعد أن تطفئ النور، وأنك ستغفو دون أن

تشعر بذلك، بدلاً من الأرق الذي يسببه الخوف من قدوم عزرائيل .

-وهل تعتقد أن عزرائيل سيغض النظر عنا إذا تزوجنا؟

-لا، ولكن الخوف سيختفي من حياتنا عندما نجد شريكاً يقاسمنا في الظلمة ساعات الفراغ، أنصحك أن تفعل مثلي وتقرر الزواج، لا داعي للمكابرة.

-بعد غالية، لن أتزوج إلا في حالة واحدة، إذا عثرت على جلنار، وفي حال لم تكن على ذمة رجل آخر.

-من هي جلنار؟

-امرأة أحببتها قبل أن أتزوج غالية، كانت تقف خلف نافذة منزلها وترتدي ثوبا أحمر.

-ابحث عنها وتزوجها.

-لا أعرف اسمها، ولا أعرف عنوانها.

-ألم تقل أن اسمها جلنار؟

-أنا أطلقت عليها هذا الاسم، أما اسمها الحقيقي فلا أعرفه.

ثم قص يوسف الحكاية على مسامع كمال الذي انتهت الجلسة المشتركة بينهما دون أن يتمكن من التوقف عن الضحك.

في تلك الليلة داهمت جلنار حلمه، كانت تقف خلف النافذة بثوبها الأحمر وتبتسم له، وكان ذلك كما لو أنه في الواقع تماماً، عاتبته جلنار لأنه لم يأت لخطبتها في ذلك اليوم الذي وعدها فيه بالأمر فاعتذر وشعر بالخجل، ولكي لا يضيع الحلم في العتاب فقد انسل يوسف إلى غرفتها وضمها إلى صدره وقبلها بحرقة والدموع تنهمر من عينيه، ثم بعد أن خبا الشوق استيقظت الغريزة فنزع عنها ثوبها الأحمر، ولكنه ما أن فعل ذلك حتى زكمت أنفه رائحة المازوت.

كان يوسف قد أشعل المدفأة عندما عاد إلى البيت ولكنه لم ينتبه إلى أن النار قد انطفأت بعد ذلك بقليل وظل المازوت يتدفق إلى المحرقة، وعندما أوى إلى فراشه لم ينتبه إلى أن المازوت أخذ يتسرب منها، ظناً

منه أنها مطفأة، ولذلك فقد تجمع المازوت حتى ملأ الطبق الذي تحتها ففاحت رائحته وقطعت حلم يوسف.

في اليوم التالي لم تفارق جلنار مخيلة يوسف دقيقة واحدة، وعندما كان يجلس في المقهى كان شارد الذهن لدرجة أنه لم يسمع كلمة واحدة مما قاله كمال، وتعرض للهزيمة في طاولة الزهر لأول مرة في حياته أمام كمال الذي كان يوسف يشكل له عقدة في هذه اللعبة، وهذا ما شجع كمال لكي يتباهى ممازحا إياه:

– افتح على مونتي كارلو ، لا بد أنهم سيذيعون النبأ.

- أي نبأ؟

تساءل يوسف الذي أفاق من شروده فقال كمال تملأ عينيه نشوة انتصار شخص يحفل تاريخه بالهزائم:

– نبأ شرشحتك في طاولة الزهر.

ولكن يوسف لوح بقفا يده غير متفاعل مع هذه الدعابة ثم انصرف مودعا كمال بكلمة مقتضبة:

- عن إذنك.

أدرك يوسف أن حضور جلنار هذا لم يكن صدفة، وشعر أن بشيراً خفيا ينبهه إلى وجودها، وأكدت له حاسته السادسة أن جلنار قاب قوسين أو أدنى، إن عودتها إلى ذاكرته بعد سبعة وأربعين عاماً ليست مجرد مصادفة ولم تكن عبثاً.

وبالفعل، فإن الحاسة السادسة ليوسف لم تكن تتلاعب بعواطفه، ففي اليوم التالي عندما كان جالساً في المقهى لمح جلنار من الزجاج وهي تعبر الشارع، عرفها من طريقة سيرها التي لا يمكن أن ينساها مدى حياته، وكذلك من تلك الشامة البنية فوق شفتها العليا، وهب من مكانه على الفور ولحق بها، وكاد يصطدم بزجاج باب المقهى ويحطمه، وكادت تدهسه عجلات سيارة مسرعة وهو يجتاز الشارع إلى الجهة المقابلة حيث كانت جلنار قد أوقفت سيارة تكسي وصعدت إليها، ناداها بأعلى صوته:

- جلنار.. جلنار.

ولكن جلنار لم تعرف أنها المقصودة بالنداء، وأقلعت سيارة التكسي دون أن تعير جلنار اهتماما لذلك النداء، أما يوسف فقد قرر ألا يفقدها بعد أن عثر عليها ولذلك أوقف سيارة تكسي أخرى ولحق بها، وعندما توقف السائق على الإشارة الحمراء أجبره يوسف على تجاهلها وتجاوزها للحاق بالسيارة التي تركبها جلنار والتي كادت تختفي خلف المنعطف، وبعد أن كاد يفقد إثرها عدة مرات بسبب ازدحام السير، شاهد يوسف تلك السيارة تتوقف أمام أحد المباني وشاهد جلنار تترجل منها ثم شاهدها تدخل إلى المبنى المكون من أربعة عشر طابقا فترجل خلفها بعد أن ناول السائق قطعة نقدية من فئة الخمسمئة ليرة وانصرف دون أن ينتظر إعادة البقية.

عندما دخل يوسف إلى المبنى كان المصعد يغلق أبوابه وينطلق بجلنار نحو الأعلى ومن جديد لم يتمكن يوسف من اللحاق بجلنار، ولكنه تابع لوحة الأزرار لكي يحدد على أي طابق تعيش، وتنفس الصعداء عندما

شاهد المصعد يتوقف على الطابق الخامس، فقد عرف الآن عنوانها والطابق الذي تعيش عليه، وقرر أن يأتي غدا في الصباح الباكر وينتظرها هنا، ولكنه عاد وتراجع عن قراره، فربما تكون جلنار قادمة في زيارة إلى هنا وليس من الضروري أن تكون من سكان هذا المبنى، ولذلك فقد قرر أن يدق الحديد وهو ساخن بأن يصعد إلى الطابق الخامس، فهو لم يعد مراهقاً وليس هناك وقت يهدره في الانتظار لأن كل يوم من حياته في هذه السن يمكن أن يكون الأخير.

ضغط يوسف على الزر مستدعياً المصعد، ولكن أحدهم كان قد سبقه من أحد الطوابق العليا مما جعل المصعد يتوجه إلى الأعلى، ولأن يوسف كان في غاية الشوق إليها وفي غاية الخوف من فقدانها فإن قدرته على الانتظار كانت معدومة تماماً فقرر أن يصعد الدرج.

وبما أن يوسف لم يفعل ذلك منذ زمن بعيد فقد اكتشف كم كان قلبه ضعيفاً أمام عمل مرهق مثل صعود الدرج، فقد تسارعت دقات قلبه وأخذ يلهث حتى كاد يفقد أنفاسه، مما دفعه للتوقف وإلى تناول حبة دواء من جيبه رماها إلى تحت لسانه تحاشيا لنوبة قلبية كان من الممكن أن تداهمه بسبب الإرهاق وبعد ذلك استند إلى الجدار، وأثناء ذلك شاهد امرأة تهبط الدرج فسألها في أي طابق هو الآن فأجابت بأنه على الطابق الثالث وتابعت سيرها نحو الأسفل بينما تابع هو صعوده باتجاه الطابق الخامس بعد أن التقط أنفاسه.

على الطابق الخامس وجد يوسف بابين لشقتين، ولكي لا يحتار من أين يبدأ فقد قرع مباشرة جرس الباب الذي على اليمين، ففتحت له امرأة في حوالي الستين من العمر، ولكي يعطي أسئلته صبغة حسن النية فقد ادعى يوسف أنه يبحث عن قريبة له مفقودة منذ زمن بعيد وأنه شاهدها تصعد إلى الطابق

الخامس قبل قليل، ومن أجل أن يغري المرأة فيما لو كانت جلنار أختها أو قريبتها فقد ادعى أنها حصلت على إرث كبير وأنه يود إبلاغها بذلك، فأخبرته صاحبة المنزل أن المرأة التي يبحث عنها هي خادمة تعمل عندها، وأنها كانت قبل قليل هنا حيث تقاضت أجرها وانصرفت، وعندما سألها يوسف عن موعد حضورها في المرة القادمة أبلغته أنها لن تحضر مرة أخرى، وسألها إن كانت تعرف العنوان فأخبرته أن ابنها هو الذي اتفق مع الخادمة، أما هي فلا تعرف العنوان، وعندما سألها عن ابنها أعلمته أنه طيار وأنه صباح هذا اليوم أقلع في رحلة إلى الأرجنتين، فرجاها يوسف أن تجعل ابنها يتصل به عندما يعود من الأرجنتين وترك لها رقم هاتفه.

في غضون يومين كاملين لم يترك يوسف المذياع دقيقة واحدة، ولم يفوّت أي نشرة أخبار، فجل ما كان يخشاه هو أن تسقط الطائرة المسافرة إلى الأرجنتين قبل عودتها إلى دمشق، وحتى عندما كان يغفو ليلاً لم

يكن يطفئ المذياع، ولم يفعل يوسف ذلك عبثاً وإنما بتحريض من حاسته السادسة التي كانت تعمل بكامل طاقتها في هذه الأيام، وفي هذه المرة أيضاً لم تخنه حاسته السادسة، ففي صباح اليوم الثالث أعلنت نشرات الأخبار أن طائرة أقلعت أمس من مطار بوينس آيرس واختفت عن شاشات الرادار، و عندما سمع يوسف الخبر تمنى أن يضرب المذياع بالحائط ويحوله إلى حطام، ولكنه شخص غير انفعالي ومهما بلغت أحواله سوءاً فإنه لن يقدم على مثل هذه الخطوة، وبدلاً من ذلك ارتدى يوسف بدلته الرسمية السوداء التي كان يلبسها عندما يشارك في الأعراس والجنازات وذهب ليواسي أهل الفقيد.

عندما فتحت له المرأة الباب أعلنت على الفور بلهجة لا تخلو من التذمر أن ولدها لم يعد بعد، غير أن يوسف الذي شعر بلهجة العداء في كلامها لم يعر ذلك اهتماماً وإنما تنحنح وشبك يديه أمام بطنه كما يفعل

المعزون ثم سأل بنبرة لم يكن هنالك شك أنها تخفي وراءها مأساة ما:

-هل سمعت نشرات الأخبار؟

أدرك قلب الأم على الفور ماذا يخفي هذا السؤال خلفه، فهي تعيش في قلق دائم على ابنها الطيار وفي كل مرة كان يعود فيها من السفر كانت تشعر وكأنه قد ولد من جديد، ولذلك فقد شهقت واكتفت بكلمة واحدة متسائلة:

- الطائرة؟

ولم يجب يوسف على سؤالها وإنما أثار مشهد الأم المفجوعة في نفسه الحزن وجعل دمعة حاول حبسها تترقرق في عينه واكتفى بالقول بلهجة جنائزية وصوت مخنوق:

-لا حول ولا قوة إلا بالله.

لم تستطع المرأة تحمّل الخبر المؤلم فسقطت على الأرض مغمياً عليها.

أسعفها يوسف إلى المشفى واستطاع أن يعرف منها عندما استيقظت رقم هاتف أحد أبنائها فاتصل به وأبلغه النبأ السيئ، ولم تمض ساعة إلا وكانت العائلة كلها قد تجمعت في المشفى وأخذ جميع أفرادها ينتحبون ويلطمون حزناً على فقيدهم الغالي، وعندما سمع أحدهم سؤالا من الخلف:

- هل ماتت أمي؟

التفت فوجد أمامه شقيقه الطيار الذي عاد من الأرجنتين للتو فعقد لسانه لوهلة وتلعثم ثم طمأنه بشأن والدته وأعلمه انهم إنما يبكونه هو، وكان قدوم الطيار كقدوم سيارة الإطفاء التي قضت على الحريق، فقد توقف البكاء وانهال الجميع على الطيار يقبلونه ويهنئونه بالسلامة وتحول الحزن إلى فرح، أما يوسف فقد انسل على مهل وانصرف قبل أن يستعيد الجميع رشدهم وتنقلب الأمور عليه.

عاش يوسف بعد ذلك يومين كاملين تتنازعه عذابات عدة، فقد كان ضميره يؤنبه لما سببه لعائلة الطيار من إرباكات وكان في الوقت نفسه قلقاً لأنه لن يتمكن من الحصول عن العنوان بعد أن حدث ما حدث، وأخذ يفكر في طريقة يعتذر فيها لتلك المرأة التي تسبب لها بالفجيعة بولدها الذي لم يمت فكاد يفجع ابنها بها، وفي نفس الوقت تمكنه من الحصول على عنوان جلنار، غير أن جرس الهاتف الذي رن قرب سريره كان قد قطع عليه تفكيره وعذاباته، فقد كان الطيار على الجهة الأخرى للخط وعندما اعتذر يوسف له أبلغه الطيار أنه ليس الوحيد الذي اتصل بأهله وقبلَ اعتذاره ثم أبلغه عنوان جلنار، كما أعلمه باسمها الحقيقي، رابعة.

لم تمض نصف ساعة من الزمن إلا وكان يوسف يدق باب المنزل المنصوص عليه في العنوان، وعندما سأل صاحبة المنزل التي فتحت له الباب عن رابعة قامت تلك بتوجيه أقذع الشتائم لرابعة وأبلغته أنها

طردتها من المنزل لأنها توقفت عن دفع الإيجار منذ عدة أشهر، فما كان منه إلا أن وبخ المرأة وأعطاها كامل المبلغ المستحق على رابعة، فأخذت المرأة النقود واعتذرت ملطفة الجو كنوع من الاعتذار عما قالته بحق رابعة، وعندما سألها يوسف إن كانت تعرف عنوان رابعة الجديد أعلمته المرأة بأنها لا تعرفه، ولكنها طمأنته وأكدت له أن رابعة تركت حاجياتها هنا وأنها بالتأكيد ستعود لأخذها فأعطاها يوسف رقم الهاتف ورجاها أن تتصل به فور عودة رابعة وأن لا تدعها تذهب قبل أن يأتي فوعدته المرأة بذلك وانصرف على أمل أن بحثه سينتهي قريباً.

نقل يوسف جهاز الهاتف من غرفة الضيوف إلى غرفته، ومنع أي شخص من أفراد الأسرة من الاتصال عبره متذرعاً أنه ينتظر اتصالاً مهما ولا يريد أن يشغل أحدهم الخط فيفسد عليه خططه، وعندما كان أحدهم يتذمر من هذا كان يوسف يعلن بفظاظة أن الهاتف هو ملك شخصي له وأنه يملك حرية التصرف به

كما يشاء، لم يكن بإمكانه مجاملة أحد في هذه اللحظة التاريخية، ولكن الساعة دقت معلنة منتصف الليل دون أن يعمل جرس الهاتف ولو لمرة واحدة مما دفع يوسف إلى رفع السماعة مستطلعاً فيكتشف أن الهاتف معطل وأن الحرارة فيه مفقودة فكاد يضرب رأسه بالحائط لشدة غضبه، وتوسل الله أن يصب لعنته على البلدية وعلى رئيس البلدية وعلى الجرافات وكل أدوات الحفر لأنها تسببت في انقطاع الخط الهاتفي، فلولا الحفريات التي بدأت صباح هذا اليوم في الشارع المؤدي إلى منزله لما انقطع خط الهاتف.

أصيب يوسف بحزن شديد وخشي أن تكون المرأة قد اتصلت في هذه الفترة وتمنى لو تؤجل جلنار أخذ حاجياتها إلى يوم غد لكي لا يفقدها مرة أخرى، ولم يتمكن من النوم ليلتها.

في الصباح الباكر فتحت له صاحبة المنزل الباب والنوم لا يزال متعلقا بأهدابها حيث أن يوسف لم

ينتبه إلى أن الساعة لا تزال السادسة، لم يسعفه صبره في الانتظار حتى الثامنة، وعندما شرح لها القصة أعلمته وهي تتثاءب أن رابعة جاءت بالأمس وأخذت حاجياتها أثناء غيابها وأن ابنتها لم تكن تعلم بالأمر فلم تخبر رابعة بموضوعه، كاد يوسف يقبض بيديه على خناقها فلا يتركها إلا جثة هامدة، ولكنه بعد لم يفقد عقله الذي منعه من ارتكاب تلك الجريمة، غير أن صاحبة المنزل استطاعت أن تلمح في عينيه هذه الرغبة المكبوتة في خنقها، ولذلك فقد أخذت تحاول طمأنته وبعث الأمل في نفسه فاستدارت نحو الداخل وقالت:

- سأسأل ابنتي، ربما تكون رابعة قد أخبرتها بالعنوان الجديد.

فانتعش يوسف قليلا وقال بلهجة المتسول:

-حتى لو اسم المنطقة.

فهو الآن لم يعد يسعى إلى لقاء جلنار فقط وإنما كذلك لكي يخلصها من حياة الذل التي تعيشها هذه، فجلنار تستحق أن تكون أميرة أو ملكة متوجة لا خادمة مهانة.

عادت المرأة من الداخل وأخبرت يوسف أن رابعة لم تبلغ ابنتها بشيء ولم تترك أي دليل قد يساعد يوسف في الوصول إلى عنوانها، فقد أخذت أغراضها في الأمس وانصرفت دون أن تنطق بكلمة واحدة، غير أنه كما لا يوجد جريمة كاملة فإنه لا توجد مأساة كاملة لأن خيطاً واهياً من الأمل يرافق كل مأساة، وخيط الأمل هذا في مأساة يوسف كان سائق الشاحنة الذي ذكرت ابنة صاحبة المنزل أن جلنار قد نقلت فيها أغراضها بالأمس، ولكن المرأة لم تكن تعرف عنوانه ولا اسمه، وكل ما كانت تعرفه عنه هو أنه يلقب بالبغل وأنه يقف بشاحنته دائماً في الساحة المقابلة للفرن الآلي، وعندما سألها يوسف عن أوصاف تساعده في الاهتداء عليه قالت:

-الجميع هناك يعرفونه، اسأل أي بائع عن البغل فيرشدك إليه.

-ألا يغضب إن علم أنني قلت عنه ذلك؟

سأل يوسف المرأة مستغربا هذا اللقب المهين الذي يطلق على الرجل فأبلغته أنه لا يغضب وأنه يعرّف عن نفسه بهذه الصفة.

في الساحة المقابلة للفرن الآلي لم يجد يوسف أي شاحنة فظن أن البغل يؤدي عملاً ما وأنه عندما ينتهي لابد سيعود إلى هنا، ولكي يطمئن أكثر فقد توجه إلى أحد الأكشاك وسأل صاحبه:

-هل شاهدت البغل اليوم في الساحة؟

-لم يأت البغل اليوم وربما لن يأتي أبداً، فقد اصطدمت شاحنته أمس بشاحنة ضخمة، ونقل على إثر ذلك إلى المشفى بين الموت والحياة.

كان صاحب الكشك يقول ذلك بلهجة لا تخلو من الفرح كما لو أنه يزف ليوسف بشارة سارة، مما دفع

يوسف للتفكير بأن يوجه له عبر الكوة لكمة تحطم أنفه، ولكنه لم يفعل ذلك، فهو شخص غير انفعالي.

عندما سألوه عن اسم المصاب في مشفى المواساة لم يتردد يوسف في الرد:

-البغل.

ضحك الأطباء والممرضون والممرضات وقالت إحداهن:

-اذهب إلى دوار البيطرة، فربما يكون هناك، هنا لا نعالج البغال.

وعندما شرح لهم يوسف الأمر أكدوا له أنهم لا يستطيعون معرفة الشخص من لقبه، خاصة إذا كان مثل هذا اللقب، ولكنهم سمحوا له بسؤال المصابين في حوادث السيارات ليعرف إن كان البغل واحدا منهم أم لا، وقد شعر يوسف بكثير من الإحراج عندما توقف أمام سرير أول واحد منهم، وأكثر ما كان يحرجه ويسبب له الإرباك هو الشكل الذي يجب أن يصيغ به سؤاله، فليس من

الوارد أن يسأل شخصاً لا يعرفه إن كان هو البغل أم لا، فإن حدث وكان هذا الشخص هو البغل فلن يكون في ذلك ضير، ولكن إذا لم يكن البغل هو هذا المصاب فإن الأمر سيستفزه ويجعله يشعر بالإهانة، ولذلك فقد صاغ يوسف السؤال على الشكل التالي:

- هل أنت سائق شاحنة؟

وعندما أجابه الرجل بأنه سائق شاحنة أعاده إلى دائرة الإحراج من جديد، فالبغل ليس سائق الشاحنة الوحيد في البلد ولذلك فإنه لا مهرب من السؤال(هل أنت البغل؟) ولكن يوسف لم يكن ليقدم على ذلك، ولكي يتخلص من المأزق فقد قام بشرح القصة للمصاب الذي تفهم موقفه وأعلمه وعلى وجهه ابتسامة مكبوتة أنه ليس بالبغل، وإنقاذاً ليوسف فقد صرخ أحد الممرضين الذين شاهدوا الإحراج الذي يعاني منه سائلاً جميع المصابين في العنبر بصوت مرتفع:

- يا جماعة، هل من أحد هنا اسمه البغل؟

وعندما لم يجب أحد على سؤال الممرض أدرك يوسف أن البغل ليس بين المصابين، وسأل الطبيب إن كان أحد المصابين في حوادث السيارات قد توفي أمس أم لا فأعلمه الطبيب أن عدة أشخاص قد تعرضوا للوفاة، ولكن تلك الإجابة لم تكن لتحل مشكلة يوسف المعقدة، فليس هناك أي فائدة من معرفة إن كان الميت هو البغل أم لا، فإن كان البغل قد مات فقد مات معه أثر جلنار، وإن كان لم يمت فإن من الأسهل الاهتداء على شخص يعرف عنوانه بدلا من البحث عنه في المستشفيات، وقد عقد يوسف أمله على صاحب الكشك الذي يقع في الساحة المقابلة للفرن الآلي، ولكن الكشك كان مغلقاً عندما عاد يوسف إلى هناك، ولذلك فقد أجل السؤال إلى صباح اليوم التالي.

ولم يخطئ يوسف في اختيار صاحب الكشك كمنقذ له في محنته هذه، فقد ساعده الرجل في ذلك فعلاً وقام بإرشاده إلى الحي الذي يعتقد أن البغل يسكن فيه،

وفي ذلك الحي لم يجد يوسف أي صعوبة تذكر في الاهتداء إلى منزل البغل، فقد قام أول شخص قابله بإرشاده إلى ذلك المنزل، وعندما قرع الجرس فتح له البغل شخصياً باب المنزل.

حين شاهد يوسف البغل أدرك أن من أطلق عليه هذا اللقب لم يطلقه عبثاً، فقد كان للبغل وجهاً متطاولاً واسعاً من الأعلى وضيقاً من الأسفل ويشبه رأس البغل إلى درجة كبيرة، وكانت فوق عينه لصاقة طبية تدل على أنه أصيب بجرح منذ زمن غير بعيد، ولكنه علم فيما بعد أن الرجل لقب بالبغل ليس بسبب شكل وجهه، وإنما بسبب قوة البغل التي يمتلكها وكذلك لقدرته التي لا تضاهى على تحمل العمل الشاق.

سأل يوسف الرجل عن رابعة، وإن كان يتذكر العنوان الذي نقلها إليه، وعندما سأله البغل عن سر اهتمامه برابعة كرر يوسف قصة الإرث الذي حصلت عليه، فقال له البغل أنه يعرف العنوان ولكنه بناء على

طلب رابعة لا يستطيع البوح به، غير أنه على استعداد لإبلاغها بذلك، فوافق يوسف وطلب منه أن يذهب إليها بأقصى سرعة ممكنة، فطلب البغل منه مبلغاً من المال لقاء ذلك لأن سيارته معطلة وهو يحتاج إلى استئجار سيارة خاصة يذهب بها لأنه لا يتنقل في وسائط النقل العام، حيث أن رابعة الآن تعيش في قرية غير بعيدة كما أكد البغل، ولم يكن يوسف ليبخل بالمال من أجل الوصول إلى جلنار فأعطاه المبلغ على الفور وترك له رقم الهاتف لكي يتصل به عندما يعود.

ومرة أخرى تعلق قلب يوسف بجرس الهاتف الذي رن كثيراً في ذلك اليوم بعد أن تم إصلاح الخط، وكان في كل مرة يرفع السماعة والأمل يملأ قلبه ثم يضعها والخيبة مرتسمة على وجهه، كل الذين يعرفون رقم هاتفه اتصلوا في ذلك اليوم، ماعدا البغل الذي انتصف الليل ولم يتصل بيوسف مما جعله يشعر بكراهية نحو ذلك الرجل الذي يتباطأ إلى هذا الحد، خاصة أن

يوسف كان يعتبره يقوم بعمل مأجور ولا يؤدي خدمة مجانية له، فمن الواضح تماماً أن المبلغ الذي طلبه ليس فقط لتغطية تكاليف الطريق إلى القرية التي تقيم فيها جلنار، وإنما لأكثر من ذلك.

في صباح اليوم التالي توقف يوسف عن الانتظار وقرر الذهاب إلى بيت البغل، وعندما سأله عن سبب عدم الاتصال أوضح له البغل أنه لم يجد رابعة في القرية وأنه سيضطر للذهاب إلى هناك مرة أخرى فطلب منه يوسف أن يسرع في ذلك وأعطاه المال لكي يستأجر سيارة خاصة ويتوجه إلى هناك مباشرة، ثم عاد إلى منزله وجلس قرب جهاز الهاتف من جديد.

ومن جديد اتصل الجميع ما عدا البغل، وبعد أن انتصف الليل ألقى يوسف برأسه على الوسادة وغفا.

لم يطل انتظار يوسف، فما إن كاد يغط في النوم حتى جاءته جلنار، لم تكن ترتدي ثوبها الأحمر

هذه المرة و إنما كانت كما رآها أمام المقهى، كما أنه لم يضمها إلى صدره ولم يقبلها ولم ينزع عنها شيء، كان لقاءاً هادئاً لعاشقين عجوزين، فقد جلست جلنار على حافة السرير بينما بقي يوسف مستلق على ظهره واكتفى بشبك ذراعيه خلف رأسه.

-أسميتك جلنار بينما أنت رابعة.

قال لها يوسف وكأنه يطلب منها أن تسمح له بمناداتها جلنار بدلاً من رابعة فقالت:

– وأنا أسميتك فارس فتبين أنك يوسف.

-سأغير اسمي إلى فارس إن كان ذلك يرضيك.

-و أنا سأغير اسمي إلى جلنار.

-لماذا لم تأت في ذلك المساء؟ لقد أخبرت أهلي أنك قادم لخطبتي.

قالت له جلنار معاتبة فوضح لها:

-لقد أخطأت أمي العنوان .

-أعرف- قالت جلنار ثم أردفت- لقد شاهدتك وأنت تخرج مع غالية في ثوب العرس من منزلهم.

انهمرت الدموع من عيني يوسف وأخذ يديها بين يديه وضمهما إلى صدره، عندها قرع أحدهم الباب قاطعاً عليه حلمه.

نهض يوسف من فراشه بانزعاج وانفجر غاضباً في وجه ابنه الذي كان قد فتح الباب ودخل:

-ما الذي تريده بحق السماء؟ ألم يكن من الممكن تأجيل زيارتك الغالية عدة دقائق أخرى؟

-جئت لكي أنبهك أن نشرة الأخبار ستبدأ بعد قليل.

-لعنة الله على الأخبار وعلى التلفزيون وعلى كل شيء، في المرة القادمة افتح الباب بهدوء وادخل، فإذا وجدتني نائماً فاتركني، هناك أشياء أهم من الأخبار عندما يكون الإنسان نائماً.

كان يوسف يرغب بأن يستمر اللقاء أكثر، حتى لو كان ذلك في الحلم.

لم يحاول يوسف النوم من جديد، ولم يذهب لمتابعة نشرة الأخبار، وإنما ارتدى ثيابه وتوجه إلى المطبخ فأخذ منه سكيناً وذهب إلى منزل البغل، لم يعد يطيق انتظاراً لكل هذا التأجيل.

تبين أن البغل لم يعثر على جلنار اليوم أيضا ووعده بالذهاب غداً، ولكن يوسف لم يعد قادراً على الانتظار حتى الغد فامتشق السكين من تحت سترته ووضعها على رقبة البغل بحركة بارعة وكأنه تدرب على ذلك عشرات السنين وطلب منه أن يعطيه عنوان جلنار فوراً قبل أن يحز عنقه، أما البغل الذي حسب حساب كل شيء ولكنه لم يحسب حساباً لهذا الأمر الذي ربما كان أصعب موقف واجهه في حياته، فقد باغته يوسف لدرجة كان فيها عاجزاً عن فعل أي شيء، وهذا ما جعله يعترف بالحقيقة، فقد تبين أنه لم يأخذ رابعة إلى أي قرية وأنه إنما اختلق ذلك لكي يبتز بعض النقود من يوسف، وعندما ضغط يوسف بالسكين على رقبته سائلاً عن

المكان الذي أقلها إليه أقسم البغل أنه أقلها إلى (سوق الحرامية) حيث باعت حاجياتها هناك لشخص كانت قد اتفقت معه قبل ذلك.

فكر يوسف كثيراً قبل أن يتخذ قراره، فكل مشاعره كانت تدفعه لحز عنق البغل وتخليص البشرية من أمثاله، ولكنه شخص غير انفعالي، ولذلك فقد أبعد السكين واكتفى بأن بصق في وجهه، غير أنه ظل عاجزاً عن إخفاء الحزن الذي اعتراه، مما دفع البغل للإشفاق عليه رغم أنه تلقى منه بصقة في شاربيه للتو، فمسح البصقة براحته ثم اعتذر شديد الاعتذار ووعده بأنه لن يهدأ له بال قبل أن يعثر على رابعة، ولكن ذلك لم يهدأ من روع يوسف الذي بصق مرة أخرى وانصرف.

تمنى يوسف لو أنه لم يتذكر جلنار أبدا، فقد كان يعيش حياته بشكل طبيعي، وكانت نشرات الأخبار المختلفة تشبع كل رغباته، ولكنه بعد أن استحضر جلنار إلى ذاكرته لم يعد قادراً على ذلك، فقد سيطرت على كل

مساحات عقله الواعية واللاواعية، ملأت حلمة ويقظته، فعندما يكون شارداً في أمر ما يكون شارداً فيها وعندما يركز تفكيره على أمر ما يركز تفكيره عليها، ولكي يعود إلى حياته الطبيعية لا بد له من العثور عليها، ليس هناك حل آخر.

صارح يوسف جاره كمال بالموضوع فما كان من ذلك إلا أن قهقه ساخراً، فهو لأول مرة في حياته يسمع أن إنساناً في السبعين يعشق، ولو أنه عشق صبية لربما تفهم ذلك، لأن الكثيرين من المتقدمين في السن تعود إليهم المراهقة تمسكاً بالحياة ويحدث أن يقع أحدهم في حب كاعب، أما أن يعشق الرجل السبعيني امرأة شاهدها قبل ما يقارب الخمسين عاماً فهذا ما يدفع إلى القهقهة فعلاً.

أكد له يوسف أن الأمر خارجاً عن يده، وأنه حاول طردها من مخيلته وتفكيره كثيراً ولكنه لم يفلح، ولكن هذه التأكيدات لم تكن سوى حجة في يد كمال الذي

اتهمه بالخرف ونصحه بعدم سرد القصة على مسامع أحد وإلا فإنه سيجد نفسه في مشفى الأمراض العقلية حتماً.

عندما كان كمال يقهقه لم يكن يدرك أن يوسف يمكن أن يفقد عقله بالفعل إذا لم يعثر على جلنار، كان يعتقد أن نزوة عابرة هي التي تحرك لواعج يوسف وأن الأمر لا يتعدى كونه نزعة صبيانية، ولم يسعفه نظره الضعيف في رؤية الشحوب الذي أخذ يصبغ وجه يوسف الذي لم يتذوق طعم الأكل والنوم منذ أيام، لقد فقد شهيته تماماً ولم تعد عيناه قادرتان على النوم، إضافة لمشاعر اليأس والخيبة والحزن التي كانت تسيطر عليه وتحول أيامه التي يعيشها إلى فترة حكم بالحياة وليس إلى حياة حقيقية، لقد فقد أي متعة في العيش، يحدث معه الآن ما حدث قبل سبعة وأربعين عاماً حين رفضت أمه خطبة جلنار ولو أن البغل تأخر عدة أيام أخرى لقضي عليه حتما، فجسمه الذي دعكته السنون لم

يعد قادراً على أداء مثل هذه الامتحانات الصعبة، وكان على وشك الانهيار عندما رن جرس الهاتف.

عندما رفع يوسف سماعة الهاتف لم يدر في خلده أبداً أن البغل هو الذي سيكلمه، حيث كان قد طرده من ذاكرته كلياً، وعندما عرّف البغل عن نفسه شعر يوسف بأن خيط الأمل الذي سينهي مأساته قد توهج من جديد، فالبغل لم يكن ليتصل به لو أنه لم يكن يملك معلومة تخص جلنار، وبالفعل فقد أعلمه البغل أنه قد التقى رابعة واتفق معها على أن تأتي إليه في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، وحذره يوسف بأنه في هذه المرة سيقتله حتماً إن كان يدبر عملية احتيال جديدة فأكد له البغل أنه نادم على ما فعل وأنه إنما يساعده الآن في ذلك آملاً التكفير عن الذنب الذي ارتكبه بحقه سابقاً.

شعر يوسف بشيء من الحيوية بعد هذا الاتصال فاستحم وحلق ذقنه ثم دخل إلى المطبخ وتناول طعامه من البراد مباشرة وبشهية غير معهودة فيه.

وفي الليل جاءته جلنار في ثوب العرس ، أو بالأحرى هو الذي ذهب إليها، كانت في بيت البغل، وعندما دخل يوسف إلى هناك وجدها في ثوب العرس تنتظره ومعها المأذون و اثنان من الشهود، ولكنه بدلا من أن يفرح غضب غضباً شديداً وصرخ في وجهها، وعندما استغربت موقفه بعد انتظاره كل هذه السنين أوضح لها بأنه لا يحب المرأة التي ترمي بنفسها في أحضان الرجل ، فعليها أن تنتظر منه إحضار المأذون والشهود، وعليها ألا تقبل بعرضه للزواج مباشرة، يجب أن تطلب منه مهلة للتفكير لكي تكبر في نظره، كما أنه لا يقبل أن تقوم زوجته بإحضار رجلين غريبين حتى ولو كان ذلك للشهادة وكادت تتغير نظرته جلنار وكاد شعور بالتقزز يحل محل شعوره بالحب تجاهها، ولكن البغل تدخل

عندما سنحت له الفرصة بالكلام وأوضح ليوسف أنه هو الذي جاء بالمأذون والشهود لكي يؤدي له خدمة يكفر فيها عن ذنبه السابق فشعر يوسف بالحرج نتيجة لإساءته الظن بجلنار واعتذر منها فقبلت اعتذاره، وعندها طلب يوسف من المأذون أن يبدأ عمله، طلبت جلنار منه تأجيل الموضوع وإعطاءها مهلة للتفكير، الأمر الذي لم يعجبه ولم يفهمه:

-لا مجال للتفكير.

قال يوسف وطلب منها أن تفسر موقفها فقالت:

-رأيي في هذه الأمور مثل رأيك تماماً، المرأة التي تحترم نفسها لا يفترض أن توافق فوراً، يجب تحافظ على عزة نفسها مهما كانت مولعة بذلك الرجل.

ولكن يوسف كان قد تراجع عن كل ما قاله قبل قليل، وأكد لها أنه لم يقل ما قاله إلا بسبب انفعاله وأن رأيه في هذا الأمر يختلف تماماً، إلا أن جلنار أصرت على موقفها وطلب مهلة لا تقل عن أسبوع فلم يقبل.

-من يدري إن كنت سأعيش أسبوعا آخر أم لا، نحن لسنا في عز الصبا، نحن نقف على حافة قبرنا.

ولكن هذا الكلام لم يؤثر على جلنار التي قالت:

-الأعمار بيد الله .

ومثلما لم تقتنع جلنار بكلام يوسف فإن يوسف لم يقتنع بكلام جلنار وأكد بأنه سيرتكب جريمة قتل إن لم يتم عقد الزواج للتو، ولأن نبرة صوته كانت تدل على أنه جاد فيما يقول فقد خضعت جلنار لرغبة يوسف التي كانت أصلاً تتمنى أن يصر عليها.

قرر يوسف أن يدخل إلى الدار حاملاً جلنار على ذراعيه وهي في ثوب العرس، لم يكن يرغب في أن يكون زواجه كزواج أي أرمل عجوز من أي أرملة عجوز، لم يكن أصلا يشعر أنه عجوز ولهذا فقد فكر بهذه الطريقة، كان قد استرجع شبابه تماما، كما أن جلنار كانت قد استرجعت صباها، وما أن فتح يوسف الباب

وحمل جلنار على ذراعيه ليدخل بها حتى أحس بابنه يوقظه .

– الساعة أصبحت السادسة وعشر دقائق.

انفجر يوسف في وجه ابنه وكاد يصفعه من الغضب:

-حتى لو أصبحت الساعة المئة وسبعين دقيقة، فماذا يهمني في هذا، لقد خرجت إلى التقاعد لكي أرتاح من الساعة وحكم الساعة، ما الذي تريده مني؟

- أخبار السادسة والربع قريباً، ألا تريد أن تسمعها.

- لا أريد أن أسمع شيئاً، وأكثر شيء لا أريده في هذه اللحظة هو رؤية وجهك، فانصرف من أمامي قبل أن أرتكب حماقة، ما لقد حذرتك في المرة الماضية.

لم يكن يوسف في العادة يتأخر عن موعد نشرة الأخبار، لقد كان دائماً يستيقظ في الخامسة صباحاً، و أحيانا قبل ذلك، وإن حدث و تأخر في النوم فقد كان يغضب إن مر موعد الأخبار ولم يوقظوه، وذلك كان يحدث أحياناً، و كان ابنه عندما يوقظه في مثل هذه

الحالات يشعر بشعور من يؤدي واجباً وطنياً، وكان يوسف في السابق يشعر بالرضا والامتنان لذلك واليوم كان ليشعر الشعور نفسه لو أن جلنار لم تكن معه في الحلم، فقد كان يتمنى ألا ينتهي ذلك الحلم، ولهذا فقد شعر بالغضب لأن ابنه قطع عليه مثل هذا الحلم، فلو أنه انتظر حتى يدخل يوسف بجلنار إلى الدار فربما لم يكن غضبه ليصل إلى هذه الدرجة، ولو أنه انتظر حتى يدخل بها الغرفة لما غضب بتاتاً، ولكنه اقتحم عليه حلمه وهو يحملها على ذراعيه أمام البوابة ويهم بالدخول بها إلى الداخل، منعه ابنه من الدخول بها إلى البيت وهذا نذير شؤم يؤكد أن أسرته ستعرقل زواجه عندما يعثر على جلنار.

رغم أن الموعد في بيت البغل كان في الساعة العاشرة صباحاً إلا أن يوسف وجد نفسه أمام بوابة منزله في السابعة صباحاً، لم يسعفه الانتظار حتى العاشرة، ولكنه بعد أن وضع يده على زر الجرس، وقبل أن

يضغط عليه فكر بالأمر، وقرر ألا يقرع الجرس، فقد لا يتفهم البغل موقفه، وقد يسخر منه، وهو لا يسمح بذلك الأمر مهما بلغ به الشوق إلى جلنار، ولذلك فقد قرر أن يقتل الوقت بطريقة ما ريثما تحين الساعة العاشرة، وهام على وجهه في الشوارع حتى ذلك الموعد.

وفي العاشرة تماما كان يوسف يقرع الجرس ففتح له البغل ودعاه للدخول، ولكن عقارب الساعة بلغت العاشرة والنصف ولم يقرع أحد جرس منزل البغل فطلب منه يوسف أن يشعل المصباح، وعندما استفسر البغل عن الدافع لذلك قال يوسف:

-قد يكون التيار الكهربائي مقطوع وجاءت رابعة وقرعت الجرس فلم يفتح لها أحد.

أشعل البغل الضوء فتبين أن التيار الكهربائي غير مقطوع ثم أطفأه فطلب منه يوسف أن يبقيه مشتعلاً، وعندما استفسر البغل عن الدافع لذلك قال يوسف:

-قد ينقطع فتأتي جلنار، أقصد رابعة.. وتقرع الجرس فلا نشعر بذلك.

وفي هذه اللحظة بالذات قُرع الجرس فتوجه البغل ليفتح الباب، وعندما دخلت رابعة لم يشعر يوسف بشيء غير عادي ولم تتسرع دقات قلبه، فرابعة التي كاد يذبح البغل بسببها لم تكن جلنار وإنما كانت المرأة التي قابلها على درج المبنى عندما صعد للبحث عن جلنار في الطابق الخامس، وعندما قدمها البغل قائلا:

-رابعة.

أدرك يوسف أن والدة الطيار لم تدله إلى المرأة المقصودة وأن رابعة التي تعمل خادمة عندها ليست جلنار، ورغم الخيبة التي أصيب بها نتيجة لذلك إلا أنه شعر بشيء من الفرح لأن جلنار ليست خادمة، فإذا كان هناك عدل على هذه البسيطة فإن جلنار يجب أن تكون أميرة وليس خادمة.

أوضح يوسف أن في الأمر خطأ وأن المرأة التي يبحث عنها ليست رابعة، ولكن رابعة أصرت على أنها المرأة المقصودة وطالبت بالإرث الذي جاءت من أجله ولم تتوانى عن اتهام يوسف بمحاولة السطو على إرثها، وعبثا حاول يوسف إقناعها بعكس ذلك مما دفعه في النهاية إلى الصراخ في وجهها ونصحها باللجوء إلى القانون لكي يساعدها في الحصول على هذا الإرث.

حدّث يوسف جاره و صديقه كمال بقصته فلم يضحك هذه المرة وإنما نصحه بالذهاب ومتابعة البحث عن جلنار في ذلك المبنى، فلا بد أنها تعيش فيه طالما أنها دخلت إليه، ووافقه يوسف على ذلك وتوجه إلى هناك آملاً أن يعثر عليها ويضع حداً لعذابه الذي تحول إلى داء دواءه جلنار.

عندما توقفت سيارة الأجرة على المحطة التي أمام المبنى لمح يوسف جلنار تلج في مدخله فترجل بسرعة وركض للحاق بها، ولكنه لم يتمكن من ذلك،

فعندما وصل يوسف إلى مدخل المبنى كان المصعد قد أقلع فتابع لوحة الأزرار لكي يتأكد من رقم الطابق الذي ستترجل فيه، وكما في المرة السابقة فقد توقف المصعد على الطابق الخامس.

تأكد يوسف أن جلنار تدخل إلى الشقة الأخرى وليس إلى شقة الطيار و ندم لأنه لم يقرع بابها في المرة الماضية مما تسبب في إضاعة الوقت، ولذلك فقد توجه يوسف اليوم إلى باب الشقة الثانية مباشرة وقرع الجرس، ولكن أحدا لم يفتح له الباب مما جعله يعيد الكرة ولكن دون فائدة، وعند ذلك لم يجد يوسف بدا من قرع باب الطيار الذي فتحت والدته في هذه المرة أيضا.

أخبرته العجوز أن الشخص الذي يسكن هذه الشقة شاب تزوج منذ فترة قصيرة وأنه الآن يقضي شهر العسل مع عروسه في اللاذقية، وعندما أكد لها يوسف أن المرأة دخلت إلى هنا قالت أنها ربما تكون أمه أو حماته وجاءت لتنظيف الشقة أو تفقدها، وهنا أيقن يوسف

أن سوءاً قد حدث لجلنار بعد أن دخلت الشقة وهذا بالتحديد ما منعها من فتح الباب له، فربما تكون قد فقدت وعيها وربما تكون قد أصيبت بنوبة قلبية وفتح يوسف في خياله باب مملكة الاحتمالات السوداء وأكد للعجوز والدة الطيار أنه لابد من محاولة إنقاذها فلو لم يكن قد أغمي عليها لفتحت الباب، ثم أخذ يحاول خلعه إلا أن قواه لم تسعفه في ذلك، عندها سأل يوسف المرأة العجوز إن كانت شرفتي المنزلين متقاربتين فقالت المرأة وقد سيطر عليها الخوف مما يدور في خلده أنه يفصل بين الشرفتين متر ونصف المتر على الأقل، وحذرته من مغبة مثل هذه المغامرة فطمأنها وهدأ من روعها مدعياً أنه كان يعمل إطفائياً وطلب منهاُ سلماً.

وضع يوسف السلم الذي أعطته إياه والدة الطيار بين الشرفتين وزحف فوقه باتجاه شرفة الشقة الثانية في عملية انتحارية لا يقوم بها إلا عاشق مجنون، ولم تمض خمس دقائق إلا وكان يوسف على شرفة الشقة

الموصدة التي يفصلها عن الداخل باب زجاجي، لم يفكر يوسف كثيرا بالطريقة التي عليه أن يفتح فيها الباب، ففي مثل هذه الحالات يجب أن يتصرف الشخص بسرعة، وإضاعة الوقت في التفكير قد يجعل إنقاذ جلنار فيما بعد أمرا مستحيلا إن كانت قد أصيبت بأزمة قلبية، ولذلك فقد كسر الزجاج ودخل إلى الشقة.

كان البهو المؤدي إلى الشرفة خاليا، فبدأ يوسف بفتح الغرف واحدة تلو الأخرى ولكنه لم يجد فيها أحدا أيضاً وعندها توجه إلى الحمّام، و عندما شاهد باب الحمّام أصيب بخوف حقيقي، فقد يكون السبب في عدم فتح الباب أن جلنار موجودة في الحمّام ولهذا فهي لم تفتح، فإن اقتحم عليها الحمّام في مثل هذه اللحظة فإنه لن يحلم بودها أبداً، ولذلك فقد وضع أذنه على الباب مستطلعاً خرير مياه يساعده في اتخاذ القرار الملائم ولكنه لم يسمع من الداخل شيئا، وفكر أنها قد تكون مستلقية في الماء ولهذا لا صوت لخرير الماء ولذلك

تمهل في اتخاذ قرار نهائي، ولكي لا يقع في موقف حرج فقد قرر شق الباب قليلا فإن شاهد علامات تدل على أنه حدث معها شيء فإنه سينقذها مهما كان موقفها من ذلك فيما بعد، أما إذا كانت تستحم فإنه سينسحب دون أن تراه، وإن شاهدته فإنه سيهرب دون أن تتمكن من حفظ ملامح وجهه وسيعود فيما بعد، خاصة وأنه يعرف الآن أين يجدها.

شق يوسف باب الحمام فوجد أن النور غير مشتعل فيه، وأدرك أن لا أحد هناك وأطرق محتارا في أمره، فأين يمكن لجلنار أن تكون قد اختفت؟ ولكن صوتا حادا من الخلف طالبه بعدم الحركة ورفع يديه أيقظه من حالة الشرود التي كانت تعتريه، لقد عاد الشاب وعروسه من شهر العسل فاعتقد العريس أن يوسف لصاً اقتحم منزله.

عبثاً حاول يوسف إقناع الشاب أن يسأل الجيران، فقد سد الشاب أذنيه عن كل توسلات يوسف وطلب منه شرح الأمر في قسم الشرطة.

اقتنع الشرطي بكلام يوسف بعد أن اتصل بوالدة الطيار التي شهدت لصالح يوسف وأطلق سراحه ولكن بعد أن نبهه إلى أنه في مثل هذه الحالات عليه الاتصال بالشرطة لكي تفتح المنزل، وحذره من المبادرات الذاتية.

و كما حدث قبل سبع وأربعين عاماً، فقد أخذت الشكوك تتسرب إلى قلب يوسف في أن جلنار ليست سوى جنية سلطها عليه أحد انتقاماً منه لأمر ما، وإلا فما الذي يجعلها كالزئبق يستحيل الإمساك بها؟ اتهمها بأنها تهيأت له في النافذة قبل سبعة وأربعين عاما وأنها تهيأت له عندما تحدث معها ليتعرف إليها في الشارع آنذاك، واتهمها بأنها هي التي جعلت والدته تخطئ العنوان عندما ذهبت لخطبتها، وهي الآن إنما

عادت لتتهيأ له من جديد وتتابع التنكيل بقلبه، ولكنه رغم كل هذه الاتهامات الصادرة عن مساحة اليأس الواسعة في عقله الذي لا يزال يحافظ على علاقة واهية مع المنطق ظل يفكر بطريقة تجعله يلتقي بها، وكان المكان يضيق به والغرفة تكاد تبصقه وتقول له اذهب إلى ذلك المبنى، اذهب إلى حيث جلنار، و شعر يوسف أنه بحاجة إلى تقاسم همه مع أحد ما فتوجه إلى جاره وصديقه كمال.

نصحه كمال بالذهاب إلى مشعوذ يساعده في طرد جلنار من رأسه إن كانت جنية فرفض يوسف ذلك رفضاً قاطعاً لأنه لا يريد أن يطرد جلنار، بل على العكس يريد أن يستحضرها، حتى وإن كانت جنية، فاقترح عليه كمال أن يذهب إلى المشعوذ لكي يساعده في العثور عليها وليس في طردها من رأسه فوافق يوسف على الفور، رغم أنه لا يثق بكلام المشعوذين ويكره هذه

الفئة من الناس التي ينسبها إلى عالم النصب والاحتيال، ولكن ربما وعل وعسى.

أكد له المشعوذ بعد أن قام بالطقوس المطلوبة أن جلنار ما هي إلا جنية، وأن اسمها الحقيقي في عالم الجن هو سرسبان، فطلب منه يوسف على الفور أن يجمعه بها، ولكن المشعوذ أكد له أن ذلك مستحيل وأن مساعدته يمكن أن تقتصر على حجاب يخلصه منها فقط لأن اجتماعها معه سيكون بمثابة إعلان جنونه وهذا هو الهدف الحقيقي الذي تسعى إليه جلنار الجنية، وعندما تمكن المشعوذ من إقناعه وافق يوسف على الاقتراح ودفع له مبلغ خمسمئة ليرة ثمنا للحجاب الذي سيخلصه من جلنار، وإضافة إلى الحجاب فقد كتب له شيئا ما على قشرة بيضة مسلوقة ثم سحق القشرة وطلب منه أن ينثرها أمام منزله لكي لا تتمكن جلنار من زيارته حتى في الحلم، وهذا ما فعله يوسف عندما عاد إلى البيت.

غير أن حجاب المشعوذ لم ينفعه في شيء، فقبل أن ينام لم تفارق جلنار مخيلة يوسف ولو للحظة واحدة،وعندما أخلد للنوم لم تتأخر جلنار في الحضور إلى حلمه، وكانت في غاية الغضب.

- أتكتب حجابا للتخلص مني بعد أن انتظرتك كل هذه السنين؟

تلعثم يوسف وأخذ يبحث عن كلام يفسر فيه ما أقدم عليه، ولكن جلنار لم تنتظر حتى يعثر يوسف على مبرراته وغادرت الغرفة مباشرة صافقة خلفها الباب بشكل يدل على مدى استيائها.

استيقظ يوسف من نومه منزعجاً وكان لا يزال يندهها متوسلاً إياها البقاء، ولكنه عندما فتح عينيه لم يجدها، دس يده تحت الوسادة وأخرج الحجاب المضاد لجلنار ثم فتحه مغتاظاً فوجد فيه قصاصة من جريدة كتب عليها كلمات غير مفهومة لأن المشعوذ على ما يبدو دعكها بالماء قبل وضعها في الحجاب.

في اليوم التالي حدث يوسف صديقه كمال بما حدث معه وصارحه بأن المشعوذ مجرد نصاب وأن لا علاقة له بالجن ولا بالإنس على حد سواء، فما كان من كمال إلا أن نصحه بأن يرابط على باب المبنى الذي دخلت إليه جلنار ورصد المدخل لعله يتمكن من مصادفتها حين تدخل أو تخرج من هناك.

كان يوسف كما لو انه ينتظر مثل هذه النصيحة ولذلك فقد توجه على الفور إلى المبني الذي تدخل إليه جلنار ورابط على الرصيف المقابل.

مضت ساعة قبل أن يشعر يوسف بالنعاس ويغفو، وأثناء نومه دخلت جلنار إلى المبنى وخرجت منه، وعندما استفاق من غفوته لم يخطر في بال يوسف أنه ربما تكون جلنار قد دخلت إلى المبنى، ولكنه عندما شاهد عدد من القطع النقدية ملقية أمامه على الأرض اقشعر بدنه فقد كان يظنه المارة متسولاً ولهذا فقد ألقى له

بعضهم بالنقود أثناء نومه، ولكي لا يحدث هذا معه مرة ثانية فقد قرر يوسف أن ينام الليلة بعمق لكي لا يغفو غداً أثناء مرابطته هنا.

عبثا حاول يوسف أن ينام ليلاً، فقد بقي يتقلب في فراشه حتى ساعات الصباح الأولى، وعندما أشرق الصباح كان يوسف على الرصيف المقابل للمبنى، ومن جديد شعر بالإرهاق فقرر أن يجلس على حافة سور الحديقة التي تحاذي الشارع، ولم تمض دقائق إلا وكان يوسف قد ألقى برأسه على السور وأخذ يشخر، خرجت جلنار من المبنى في الساعة الثامنة تقريباً، وبقيت لأكثر من خمس دقائق تقف قرب يوسف في انتظار سيارة أجرة تقلها إلى مكان ما كانت تقصده، وعندما نظرت إلى يوسف ألقت له بقطعة نقدية ورقية، ولم يفق يوسف من نومه إلا بعد ثلاث ساعات.

في الليلة الثالثة لم يحاول يوسف إجبار نفسه على النوم، فقد كان مرهقاً لدرجة جعلته يغفو بمجرد أن ألقى

برأسه على الوسادة، وفي الصباح توجه من جديد إلى ذلك الرصيف، ومرت ثلاث ساعات دون أن تظهر جلنار، وشعر يوسف بالسأم وفكر أكثر من مرة بالانصراف ولكنه لم ينصرف خوفا من أن تأتي جلنار بعد انصرافه، وفي الساعة الثالثة ظهراً شعر بالجوع وهذا أمر لم يحدث معه منذ شهر تقريبا حيث كان قد فقد شهيته، وكم تمنى لو أنه أحضر معه زوادة، فإن ذهب الآن إلى البيت لتناول الطعام فقد يضيع فرصة ذهبية ويطيل معاناته لعدة أيام أخرى، غير أن معدته تمردت عليه وانتقاماً منه فقد أخذت تأكل نفسها جاعلة القرحة المتشكلة على جدرانها ترسل موجات من الألم لم يكن يوسف قادراً على احتمالها، ولذلك فقد قرر أن يتوجه إلى مطعم قريب يشتري منه (سندويتش) فلافل ويعود إلى مكانه، ولم يكد يوسف يغادر المكان حتى خرجت جلنار من المبنى وأوقفت سيارة أجرة صعدت إليها وتوجهت إلى مكان ما.

عاد يوسف يحمل في يده اليمنى(سندويتس) الفلافل وفي يده اليسرى زجاجة مرطبات وجلس على حافة السور وتناول طعامه وقد هدأت معدته وهدأ باله، وبعد أن شعر بالشبع عاد يوسف ليشعر بالسأم مرة أخرى، وتمنى لو أنه لم يقلع عن التدخين، فإحراق السجائر يساعد في إحراق الوقت في حالات الانتظار هذه، وفكر يوسف بالانصراف أكثر من مرة ولكنه تحامل على نفسه وصمم على البقاء لكي لا يضيع فرصة قد تسنح له، ولكنه إن كان قادراً على الصمود أمام السأم فإنه لم يكن قادر على الصمود أمام أشياء أخرى، فقد كانت زجاجة المرطبات التي أطفأ بها يوسف ظمأه قبل ساعات تلح على الخروج من بدنه بعد أن قامت كليتيه بتكريرها، ولم تنفع محاولاته في الصمود هذه المرة فتوجه باحثاً عن مكان يلوذ به للتخلص مما ينكد عليه عيشه، ولم يكد يوسف ينصرف حتى توقفت أمام المبنى سيارة أجرة ترجلت جلنار منها وصعدت إلى المبنى، وعندما

عاد يوسف لم يتمكن من الانتظار سوى ساعة واحدة انصرف بعدها على أمل أن يعود في اليوم التالي لمتابعة الانتظار.

في اليوم التالي لمح يوسف جلنار تدخل المبنى عندما توقفت سيارة السرفيس على المحطة فحاول النزول بسرعة لكي يلحق بها ولكن باب السرفيس تعطل ولم يتمكن يوسف من فتحه، وبعد أن قام السائق بذلك كان الوقت قد فات للحاق بها، ولكن الأمل بخروجها دفع بيوسف للانتظار، إلا أن الساعة قاربت التاسعة ليلا ولم تخرج جلنار من المبنى، ولم يعد الانتظار مجدياً بعد ذلك فهي على الأغلب لن تخرج في مثل هذا الوقت، ولذلك فقد عاد يوسف أدراجه إلى المنزل.

أفكار وخطط كثيرة راودت مخيلة يوسف عندما كان يتقلب في فراشه محاولاً النوم، فكر أن ينتحل صفة رجل أمن ويقوم بتفتيش كافة شقق المبنى المؤلف من أربعة عشر طابق، ولكن شكله الذي يوحي بأنه متقاعد منذ

زمن بعيد سيجعل الكثيرين يشكّون في أمره، وإذا انكشفت لعبته فإنه سيحاكم بتهمة انتحال شخصية ولا بد أنه سيمضي بقية أيامه في السجن، ولذلك فقد تراجع عن هذه الفكرة منذ البداية، ثم فكر بنشر إعلان في الصحف، ولكن جهله الكلي باسمها الحقيقي جعله يتراجع عن هذه الفكرة، ثم أن جلنار قد لا تكون من قارئات الصحف، فما الذي يضمن وصول الصحيفة إليها؟ ومن الذي يضمن أنها ستعرف أنها المقصودة من ذلك الإعلان، إنها فكرة سخيفة، قال يوسف لنفسه وتابع التفكير باحثاً عن طريقة أخرى للعثور على جلنار، وعندما أرسل الفجر خيوطه الأولى من نافذة يوسف كان قد تراجع عن الكثير من الخطط الساذجة التي فكر بتنفيذها واستقر رأيه على الانتظار فقام من فراشه وغسل وجهه وتوجه إلى المبنى لانتظار جلنار.

بعد انتظار ساعتين من الزمن بلغ السأم في نفس يوسف مبلغاً لم يعد يستطيع تحمله مما دفعه للتوجه إلى

المبنى وطرق باب الطيار من جديد فلعله وأمه يتمكنان من مساعدته، وعندما ولج يوسف إلى المصعد دخلت في إثره امرأة فسألها عن الطابق الذي تقصده فقالت أنه الرابع وضغطت على زر الطابق الخامس، وعندما نبهها يوسف إلى الخطأ أوضحت له بأن المصعد لا يتوقف على الطابق الرابع وأنها تصعد إلى الطابق الخامس ثم تترجل على الدرج إلى الطابق الرابع، وهنا أدرك يوسف لغز اختفاء جلنار، أصبح الأمر واضحا تماما بالنسبة له، إنها تصعد إلى الطابق الخامس ثم تترجل إلى الطابق الرابع، وعلى الفور استغل الفرصة وسأل المرأة إن كانت تعيش هناك فأجابته بالإيجاب فروى لها يوسف قصة قريبته التي فقدها ويبحث عنها ليبلغها عن الإرث الذي حصلت عليه، وكانت أوصاف جلنار التي أعطاها يوسف للمرأة هي أوصاف أم رباح، الخادمة التي تعمل عندها مما جعل يوسف يشعر بالاستياء لأن صفة الخادمة التصقت بجلنار مرة أخرى، ولكنه أخذ منها

عنوان أم رباح على الفور وتوجه إليه حيث سيتمكن من لقاء جلنار أخيراً.

فتحت له الباب صبية بين العشرين والثلاثين من العمر تقريباً، سألها يوسف إن كان هذا هو منزل أم رباح فأجابته بأن نعم، وعندما سألها إن كان يستطيع مقابلتها أعلمته أنها مسافرة إلى حلب فطلب العنوان الذي سافرت إليه ولكن الصبية لم تكن تعرفه وسألته عن غايته من البحث عن أم رباح فقرر إخبارها بالحقيقة خاصة أنه شعر بارتياح نحوها وعلم أنها ابنة جلنار.

تبين أن الاسم الحقيقي لأم رباح هو سعاد، وأنها أرملة منذ ست وعشرين عاما وأن زوجها مات أثناء حملها بابنتها هدى التي روت ليوسف هذه الأشياء، ولم تتمكن هدى من تمالك نفسها وهي تقص عليه ذلك فأجهشت بالبكاء، فما كان من يوسف إلا أن ضم رأسها إلى صدره وقد اعتملت في داخله مشاعر أبوية حقيقية، وقد أحست هدى التي حرمت باكراً جداً من العطف

الأبوي بحرارة هذه المشاعر وكادت تقول له(أبي) بدلاً من (عمي) ولكنها لم تفعل ذلك، وعندما قدمت له فنجان القهوة أخبرته بأن والدتها تتصل مساء كل يوم فطلب منها أن تعلمها بأمره وتساعده في إقناعها بالزواج منه، وقد وافقت الفتاة على ذلك بكل سرور.

طرحة العرس والشهود والمأذون لم يفارقوا مخيلة يوسف تلك الليلة، فقد عاد إلى البيت مفعما بالفرح، وتناول طعامه بكل شهية واستحم وحلق ذقنه التي طالت كما لو أنه في حداد ولم يخجل أن يطلب من حفيدته أن تصبغ له الشعر الشائب على صدغيه، وعندما مازحته قائلة:

-هل اهتديت إلى عروس؟

كاد يوسف يجيبها بنعم، ولكن خوفه أن يفسد أحد عليه خططه جعله يقول متصنعاً:

-فات القطار.

في صباح اليوم التالي توجه يوسف إلى منزل جلنار وكله شوق لمعرفة أصداء الحوار الذي يفترض أن تكون هدى قد أجرته مع والدتها بالأمس، وبطبيعة الحال فإن هدى لم تكن لتفتح له الباب لأنها كانت على رأس عملها في ذلك الوقت، وعندما شعر يوسف بلا جدوى قرعه للباب سأل صاحب الدكان القريب وهو شاب في حوالي الثلاثين من العمر إن كان قد شاهدها تخرج من البيت هذا الصباح فما كان من صاحب الدكان إلا أن وبخه قائلاً:

-شخص في مثل سنك يجب أن يخجل من نفسه، بدلاً من قرع أبواب البيوت المشبوهة.

ورغم أنه شخص غير انفعالي فإن يوسف لم يتحمل مثل هذه التهمة التي وجهت إلى قديسته جلنار فوجد نفسه يرمي الرجل بحبة بندورة وقعت تحت يده ويبصق قائلاً:

-حذاؤها أشرف من ذقن أجدادك.

أما الرجل فمسح البصقة بهدوء وهو يقول:

-قد يكون حذاؤها كذلك، أما هي فلا علاقة لها بالشرف، لا هي ولا أمها.

عندما وجه صاحب الدكان التهمة إلى البيت دون أن يحدد المرأة المقصودة تمنى يوسف في دخيلته أن تكون هدى هي المقصودة، فجلنار لا تتحمل ذنب ابنتها إن كانت كذلك، وكما يقول المثل فكم من وردة أنجبت شوكة، ولكن أن تكون جلنار عاهرة فهذا ما لا قدرة له على احتماله، وإذا تبين أنها كذلك فإنه سيصاب بالجلطة لا محالة، و عندما أعلن صاحب الدكان قائلاً: (هي وأمها) كان قد قطع الشك باليقين ولم يترك له فسحة أمل، فانصرف إلى بيته شاعراً بأن شيئاً في صدره قد تحطم، إن سمعة جلنار سيئة إذا، طبعاً فكيف يمكن لامرأة أن تعيش ثلاثين سنة دون رجل إن لم يكن هناك رجل آخر في السر يعوضها عن ذلك، هذا إذا لم يكن هناك أكثر من رجل يفعل هذا، ثلاثون عاما وجلنار

تستقبل في مخدعها الرجال والآن بعد كل هذه السنين يأتي يوسف كأي مغفل على وجه الأرض حاملاً حبه البريء كهدية لعاهرة خبيرة، لو أنها كانت في عز صباها لتقبلها كعاهرة وروى ظمأه منها كامرأة، أما الآن وبعد أن رشق الكثير من الرجال رحيقها وتركوها ذابلة فليس هناك أي معنى لوجودها في حياته، لقد ردد يوسف قسم الطلاق كما لو أنها كانت زوجته التي اكتشف أنها تخونه، كان يسير في الشارع مطأطأ الرأس شاعراً بشعور الزوج المخدوع، وكان يتهيأ له أن الجميع ينظرون إليه ويتغامزون ساخرين وهم يشيرون إلى قرنين شعر أنهما نبتا على رأسه.

تقلب يوسف في فراشه طويلاً ودخن عشرات السجائر، لم يكن منزعجاً لأن جلنار امرأة سيئة السمعة فقط، فهي في نهاية المطاف لا تخصه من بعيد أو قريب، ولكن الذي كان يزعجه هو أنه رغم المعلومة التي حصل عليها بخصوص سلوكها المشين فقد ظل يحبها،

فلو أنه أصبح يكرهها بعد هذا لما كان في الأمر مشكلة، بل على العكس ربما كان ذلك حلاً للمشكلة، ولكن قلبه لا يزال يخفق لها بنفس الطريقة التي كان يخفق بها سابقاً وكأنه لم يسمع شيئاً أو كأن الأمر لا يهمه أبداً، وربما تغاضى يوسف عن الأمر لو أن عزة نفسه كانت لتسمح له بهذا، ولكن كرامته تفضل له الموت على الارتباط بمثل تلك المرأة.

عند عتبة الصباح انهارت قوى يوسف فغط في نوم ثقيل وعميق، ولكن جلنار لم تكن لتتركه ينام دون أن تزوره، دخلت من النافذة ترتدي ثوب العروس وعلى وجهها ابتسامة بريئة ثم فردت ذراعيها منتظرة أن يفعل يوسف ذلك أيضا ويغرقان في عناق طويل، ولكن يوسف بدلاً من أن يجاريها تناول عصا كان يخفيها خلف السرير وانهال عليها بالضرب العنيف وكأنه يريد قتلها لا تأديبها، وبالفعل فقد هوت جلنار بعد لحظات على الأرض وقد فارقت الحياة، وعندما اكتشف يوسف ذلك

أصيب بالذهول ونظر إلى يده التي يحمل فيها العصا ثم أمسك العصا باليد الأخرى ووضع يده المذنبة على الطاولة وانهال عليها ضرباً حتى سحق عظامها سحقاً انتقاماً منها لقتلها جلنار، وكان ينوي أن يفعل الشيء نفسه برأسه الذي أوحى ليده بهذا، ولكن جرس الهاتف أوقظه من نومه قبل أن يتمكن من فعل ذلك.

نظر إلى الساعة فوجد عقاربها تشير إلى العاشرة صباحاً، رفع سماعة الهاتف فكانت هدى ابنة سعاد على الطرف المقابل، أراد أن يقفل الخط في وجهها ولكنه تراجع عن ذلك بحجة أن قواعد الأدب لا تسمح له بذلك، أما الحقيقة فإنه كان يتحرق لمعرفة نتيجة الاتصال بينها وبين أمها، وقد أعلمته هدى أن أمها تود التحدث معه شخصياً، وأنها سوف تتصل في الساعة الثامنة مساء.

تردد يوسف كثيراً في الذهاب إلى منزل جلنار واتخذ قراراً حاسماً بأنه لن يذهب ولكنه ذهب، وعندما وصل إلى أمام باب منزلها تردد كثير في قرع الجرس، واتخذ

قراراً حاسماً بأنه لن يفعل ذلك ولكنه قرعه، كانت يده تفعل عكس ما يتخذ عقله من قرارات، وعندما فتحت له هدى الباب كان يود أن يوجه لها شتيمة وينصرف، ولكنه دخل وشرب القهوة وأخذ ينتظر اتصال سعاد من حلب.

لاحظت هدى أن يوسف اليوم جاف وقليل الكلام، لم يكن ذلك الرجل الذي شاهدته بالأمس والذي شعرت أنه والدها، ولذلك فقد سألته إن كان هنالك شيء يشغل باله، ولكن يوسف لم يجب على سؤالها بصراحة واكتفى بالقول:

-لا شيء.

غير أنه عندما سألته مرة ثانية قرر أن يستفسر منها لعلها تفيده في معرفة الحقيقة فيقطع بذلك الشك باليقين، خاصة أن جلنار لم تتصل بعد وأنه ربما يتمكن من اتخاذ قرار حكيم بناء على ما ستقوله هدى، فإن تأكدت أقاويل صاحب الدكان فإنه سيغير موقفه من

جلنار، وإن كان هناك بصيص أمل بأن هذه الأقاويل محض افتراء فإن ذلك سيجعله يشعر براحة البال، وقد كان يوسف يشعر بأن هدى ستقول الحقيقة عندما يسألها، كان مرتاحاً لها وواثقاً بها رغم سلوكها المشين، وإلا لما سألها أصلاً.

أخذت هدى تجهش بعد أن انتهى يوسف من طرح سؤاله، كانت تتوقع أنه معكر المزاج لسبب ما لا علاقة لها ولأمها به، أما أن يفكر الشخص الذي شعرت بأبوته نحوها بهذا الشكل فهذا ما لم تكن قادرة على تحمله، وعندما شاهد يوسف دموعها النقية أدرك على الفور بأن هذه التهمة ملفقة ولا مكان لها من الصحة، حتى قبل أن تقول له هدى ذلك، وعندما علم أن صاحب الدكان يحاول الإساءة إلى سمعتها وسمعة أمها سألها عن السبب فقالت أن صاحب الدكان هذا كان قد طلب يدها فرفضت والدتها ذلك لأنها لم تكن تنوي تزويجها قبل إنهاء الدراسة وأنه يحاول تشويه سمعتها لكي لا يقدم أحد

على الزواج منها، وهنا فقط تنفس يوسف الصعداء وانزاح عن صدره هم ثقيل، لقد شعر بالصدق في كل كلمة قالتها، وحتى لو شعر بالكذب فإنه كان سيصدقها، فما الذي يجعله يصدّق ذلك الشاب الغريب ويكذّب ابنة أعز مخلوق إلى قلبه؟!

كان صاحب الدكان يدير ظهره نحو الباب عندما هوى يوسف على رأسه بصندوق فارغ التقطه من أمام الدكان ولذلك لم يعرف من الذي ضربه من الخلف ولم يسمع الشتيمة التي وجهها له يوسف لأنه كان قد فقد وعيه قبل أن يتمكن من ذلك، لم يكن يوسف يقصد القضاء على الرجل نهائياً، كان فقط يريد أن يؤدبه ولذلك فعندما سقط البائع على الأرض استرد يوسف وعيه وتفكيره المنطقي وعاد إلى رشده ولم يدر ما عليه فعله، تلفت حوله ليرى إن كان أحد قد شاهده فلم يجد أحداً وعندما تأكد من عدم وجود شهود قرر الانسحاب بهدوء تاركاً الرجل ملقياً على الأرض آملاً أن تسجل الجريمة

ضد مجهول ظنا منه أنه قتله، وعندما انصرف أخذ معه الصندوق الذي استخدمه كأداة للجريمة، إلا أن ضميره صحا قبل أن يدخل إلى منزل جلنار فعاد إلى الدكان لعله ينقذ الرجل إن كان لا يزال هناك مجال لذلك.

قلب يوسف الرجل على ظهره وأمسك بمعصمه لير إن كانت عروقه لا تزال تنبض، فوجد أنه لا يزال على قيد الحياة، وشعر بالارتياح لذلك وتلمس رقبته التي كان يشعر أن حبل المشنقة قد التف حولها ثم بلل خرقة بالماء ومسح بها جبين الرجل الذي أخذ يسترد وعيه.

عندما أفاق البائع لم يدرك عن أي شيء كان يعتذر منه يوسف، فهو أصلاً لم يعرف ما الذي حدث، لم تدخل الضربة إلى ذاكرته أبداً، لم يكن هناك مجال لذلك، وعندما شعر يوسف بأن الرجل جاهل بما حدث قرر أن يطوي صفحة الجريمة نهائياً وادعى بأنه شاهده ملقي على الأرض فأسعفه، وأوهمه بأن صندوقاً ربما يكون قد سقط على رأسه فأيد البائع هذه الفرضية وشكر يوسف

على مساعدته له واعتذر منه للكلام الذي قاله بالأمس واعترف بأنه يفتري على سعاد وابنتها، وصارحه بأنه يفعل ذلك انتقاماً من سعاد التي رفضت طلبه بالزواج من هدى.

أقنع يوسف الرجل بأن الدنيا قسمة ونصيب وأنه ما هكذا تورد الإبل، وكان يجامله كما لو أن بينهما مودة كبيرة، إلا أن يوسف في الحقيقة كان لا يزال يكن للشاب حقداً كبيراً في داخله، فقد جعله يشكك في عفة جلنار التي تعني له ما تعنيه واعتبر أن أسلوبه خسيساً، ولكنه قرر عدم محاكمته الآن ذلك أنه لم يعد يريد منه شيئاً، فكل ما كان يبغيه هو معرفة الحقيقة، إضافة إلى أنه كان قد تعلم للتو درساً لن ينساه عندما هوى على رأس البائع بالصندوق وليس في نيته ارتكاب جريمة من جديد بعد أن مضت الأمور على خير.

أخبر يوسف هدى بما فعله فشعر بأنها مستاءة من تصرفه، ولمح في عينيها خوفاً، وتهيأ له أنه ارتكب

حماقة فوعدها أنه لن يقدم على مثل ذلك لاحقاً، وفي الموعد المضروب رن جرس الهاتف.

رغم أن يوسف لم يسمع صوت جلنار سوى مرة واحدة قبل سبع وأربعين عاما عندما طلبت منه الذهاب إلى بيت أهلها لخطبتها، فقد تمكن الآن من التعرف إلى صوتها عبر الهاتف دون صعوبة، كما أن جلنار تمكنت من معرفة صوته الذي لم تتساه رغم مرور سبع وأربعين عاماً، كانا كما لو أنهما قضيا السبعة وأربعين عاماً في لقاء وليس في فراق، لم يكن بحاجة لتذكيرها بنفسه فقد تبين أنها تهيم به حبا بنفس القدر الذي يهيم هو بها إن لم يكن أكثر، تبين أنها لمحته عندما توقف في المرة الأولى تحت النافذة قبل سبعة وأربعين عاماً وتمنت لو أنه يصبح زوجها، وبعكس ما يعتقد فقد كانت تشعر بوجوده عندما كان يتعقبها في الشارع آنذاك ولكنها تصنعت بأنها لا تراه من باب الدلال فقط، وتبين كذلك أنها طوال السبعة وأربعين عاماً لم تنسه لدقيقة واحدة وأنه

كان يزورها في الحلم دائماً، وعندما أعلمها بأنه أسماها جلنار أعلمته بأنها أسمته بدر.

استمر الحديث الهاتفي أكثر من ساعة ونصف الساعة تحدث خلالها كل منهما عن كل شيء، تحدثا وكأنهما يعرفان بعضهما البعض منذ سبعة وأربعين عاماً، بدون حواجز أو جدران لدرجة أن يوسف طلب يدها في هذا الحديث الهاتفي وأراد أن يتوجه إلى حلب لكي يعقدا قرانهما ولكنها أعلمته بأنها مشغولة بمحكمة حصر إرث وأن القضية ستنتهي بعد ثلاثة أيام وإذا كان مستعجلاً على الزواج فبإمكانه تحضير الجو خلال الأيام الثلاثة وفور عودتها من حلب سيتزوجان وقد وافق يوسف على ذلك.

طلب يوسف من هدى أن تناديه بابا، كما طلب منها قياس والدتها لكي يجهز لها ثوب العرس، وعلى الفور أجرى اتصالاته بعدد من المختصين بالتنجيد والدهان والتمديدات الصحية والكهربائية لإجراء

الإصلاحات اللازمة في المنزل بحيث تعود جلنار من حلب فتجد كل شيء في أحسن حال، ثم انصرف على أن يعود في اليوم الثاني.

أخرج يوسف من خزانته مبلغاً من المال كان قد ادخره لجنازته وقرر أن يشتري به ثوب العرس بدلاً من الكفن، ولكن المبلغ كان غير كاف لذلك ولهذا فقد أخرج يوسف أربعة أوسمة عثمانية كانت لجده وورثها هو عن أبيه وقرر أن يبيعها لأحد المحال التي تتاجر بمثل هذه الأشياء في اليوم التالي، كما قرر استدانة مبلغ من المال من صديقه وجاره كمال لإتمام بقية المصاريف، وعندما استلقى في فراشه ليلاً حاول أن ينام لكي ينهض وكله همة ونشاط في اليوم التالي، ولكن عيناه بقيتا معلقتان على عقارب الساعة تعدان الثواني حتى حلت الساعة السادسة صباحاً حيث نهض وجهز لنفسه فنجاناً من القهوة.

قهقه كمال طويلاً عندما أخبره يوسف عن الغاية التي يطلب من أجلها المبلغ، وعندما تمالك نفسه نصح يوسف بأن يشتري لجلنار زيتا يبيعونه في الأسواق لمكافحة الصدأ بدلا من ثوب العرس، فامرأة في السبعين تحتاج لمثل هذا الزيت أكثر من حاجتها لثوب العرس ولا بد أنها ستكون مثيرة للضحك إذا ارتدته في مثل هذا السن، نهض يوسف عن كرسيه في منزل كمال مستاء وكاد يصفعه، إلا أنه اكتفى بالقول أن جلنار تستحق أكثر من ذلك وانصرف صافقاً خلفه الباب بانزعاج واضح، أما كمال فقد أدرك حجم الألم الذي سببته كلماته لصديقه يوسف فلحق به وتوسل إليه طويلاً لكي يقبل المبلغ المطلوب، ولم يوافق يوسف على أخذ ذلك المبلغ إلا إكراماً للعشرة الطويلة والصداقة القديمة التي تربطهما ولو كان الذي تحدث عن زيت مكافحة الصدأ شخصاً غير كمال لما اكتفى يوسف بتحطيم أنفه.

في الساعة العاشرة صباحاً كان يوسف قد باع الأوسمة واشترى ثوب العرس وذهب إلى بيت جلنار لكي يشرف على أعمال الترميم في منزلها، فقد كان البنّاء يضع قطع (البورسلان) على الجدران القميئة للحمّام والمطبخ والدهّان يطلي الأبواب التي بدت وكأنها أصيبت بالجرب، والنجّار يصلح الأثاث المخلع كما لو أن رتلاً من الدبابات قد مرّ فوقه ويساعده المنجّد في بعث الروح في مقاعد ومساند الكنبات التي ارتخت نوابضها وتجمعت بطانتها على شكل كتل تزعج الجالس فوقها أكثر مما تسبب له الراحة، كان العمل في منزل جلنار يجري على قدم وساق حيث أن كل ذلك يجب أن ينتهي قبل أن تعود جلنار من حلب، يجب أن يقام العرس في وضع مقبول، ولو أنه لم يكن متأكداً من أن ولده وأحفاده سيقفون ضد زواجه في هذه السن لأنهم يعتبرون ذلك مبعثاً للسخرية لأجرى العرس في منزله، ولكنه يخشى أن يعرقل له الأولاد ذلك، وهو لا يريد لأحد أن يعكر فرحة جلنار في

ليلة عرسها، لن يقيم يوسف في منزل زوجته، فهو ليس من صنف الرجال الذين يقبلون بذلك، لن ينام ليلة واحدة هنا قبل أن يبيع قطعة أرض يملكها ويشتري بثمنها بيت جلنار، وبعد أن يشتريه سيسجله باسمها في دائرة العقار، ستكون تلك هدية عرسها، هكذا فقط يمكنه السكن هنا.

عندما عادت هدى من العمل لم تصدق ما رأت، لم يكن ذلك هو البيت الذي عاشت فيه طوال حياتها، ورغم أن أعمال الترميم كانت لا تزال في بدايتها إلا أن الفرق كان واضحا بينما كان البيت عليه بالأمس وبينما سيكون عليه غداً وربما بعد غد بالأكثر، قبّلت هدى يد والدها وجهّزت له وللعمال غداء لذيذاً أدرك يوسف بعده كم كانت هدى ماهرة في تحضير الطعام، وقال في نفسه متفاخراً(طبعا فهي من تصنيع جلنار) ثم ردد بالإنكليزية في دخيلته أيضا(Made in Gulnar).

في الساعة الخامسة قُرع الجرس، وعندما فتح يوسف الباب وجد أمامه امرأة سمينة يتصبب العرق منها

وتدل ملامح وجهها على مدى شعورها البليغ بالقرف، كانت المرأة والدة نادر الذي تربطه بهدى قصة حب منذ السنة الأولى للدراسة الجامعية، وكان الاثنان قد اتفقا على الزواج فور انتهائهما من الدراسة، ولكن والدة نادر التي تقف الآن بالباب رفضت الأمر رفضاً قاطعاً بمجرد أن عرفت اسم الحي الذي تعيش فيه هدى، لأنها مثلها مثل جميع أصحاب الثروة كانت مقتنعة بأن هدى ليست سوى طامعة بثروة نادر ولذلك فقد قامت بإغوائه، كما اتهمتها بالانحلال الأخلاقي قبل أن ترى وجهها أو تعرف اسمها، فجميع سكان تلك الحارات عديمو الأخلاق باعتقادها، وقد بقيت والدة نادر عامين كاملين بعد انتهاء دراسته الجامعية تقاوم رغبة ابنها إلى أن هددها بالأمس بالانتحار فرضخت لرغبته على مضض.

دعاها يوسف للدخول ففعلت ولكن بعد أن نظرت حولها نظرات فضولية دلت ملامح وجهها المتشنجة على أنها شعرت بعدها بالقرف.

عندما شاهدت هدى والدة نادر شعرت بفرح كبير يغمر قلبها رغم أنها تكن لهذه المرأة كرهاً عميقاً استوطن كل مسام في جسدها، وككل الفتيات فقد توجهت إلى المطبخ لصنع فنجان من القهوة يجعل حماتها تقر بأهليتها لتكون ربة المنزل الذي سيكون عرين ابنها.

ولكن هدى لم تكن تفكر أبداً أن الأمور ستنتهي قبل أن يغلي الماء في دلة القهوة، فعندما دعا يوسف المرأة للجلوس نظرت إلى الكنبات وكأنها تنظر إلى كومة متعفنة من القمامة وأبعدت طرف ثوبها الذي كان يلامس إحدى هذه الكنبات كما يبعد القديسون أنفسهم عن مصدر النجاسة، ثم أعلنت عن هدف زيارتها وهي لا تزال واقفة، وطلبت يد هدى وكأنها تفاوض على شراء رأس من الماشية ثم حذرته من زيارة هدى بعد أن تتزوج لأنها لا تريد للمعارف والأقارب أن يعرفوا من أي مشارب هي وأن هذا شرط وضعته على ابنها قبل أن توافق على هذا الزواج، وبعد ذلك أخرجت من حقيبتها بطاقة تحتوي

على عنوانها ورقم هاتفها وقدمتها له طالبة منه أن يتصل بعد مناقشة الأمر في الأسرة ويعلمها بالقرار.

كان يوسف يقف قبالتها صامتاً وهادئاً، ولكن بحراً صاخباً كان يعصف في داخله، ولو أن الواقف أمامه كان رجلاً بدلاً من هذه المرأة لقضى عليه يوسف حتماً، ولكنه يأبى أن يرفع يده في وجه امرأة، ولذلك فقد اكتفى بتمزيق البطاقة ورميها في وجه المرأة ثم طردها من البيت بكلمات نابية.

أما المرأة المتعجرفة فرغم شعورها بالإهانة لمثل هذا التصرف من قبل شخص تعتقد أن عليه أن يركع عندما يحدثها، فقد شعرت بالسرور العميق لذلك ووجدت فيه فرصة سانحة لإفشال الزواج، ثم خرجت مكتفية بالقول:

-لا أصل ولا تربية، تفو.

كان نادر قد أعلم هدى بطبيعة أمه وطريقتها في التعامل وطلب منها تحمل الأمر ريثما يتزوجان، ولكن هدى لم تكن قد أخبرت يوسف بهذا الأمر، وحتى لو

كانت قد فعلت ذلك فإن يوسف لم يكن ليتحمل هذا الموقف وكان سيفعل الشيء نفسه الذي فعله الآن، ولذلك فقد أجهشت هدى بالبكاء عندما علمت بما جرى، فقد ازدادت العقبات بينها وبين نادر وما كان صعباً فيما قبل فقد أصبح الآن مستحيلاً.

بعد انصراف العمال كان نادر يدق جرس الباب الخارجي وقد عقد العزم على الزواج بأي طريقة كانت، لم يعد يهمه موقف أمه بعد أن أصبح الأمر معقداً إلى هذه الدرجة، سيذهب إلى المحكمة ويعقد قرانه على هدى كما يفعل جميع الراشدين، حتى وإن كلفه ذلك تبرأ أهله منه وحرمانه من الثروة التي يجب أن تعود له في المستقبل، ولكن الوقت لم يسعفه لكي يقول كل ذلك فقد طرده يوسف مباشرة عندما علم أنه ابن المرأة التي كانت هنا منذ ساعات، وطلب منه أن يبحث عن عروس في مكان آخر لأنه يرفض زواجه من هدى بصفته والدها، وعندما

طلب الشاب من هدى أن تتخذ قراراً صرخ يوسف في وجهه:

-لا كلمة لأحد هنا بعد كلمتي، وما أقوله هو الذي سيكون، حتى وإن كان رأي هدى مخالفاً لذلك.

كان يوسف في حالة من الانفعال لم تكن تسمح له بالتفكير فيما يتخذه من قرارات، إضافة إلى أن الدور الذي يلعبه كأب صارم كان يعجبه بعض الشيء، فهو منذ زمن بعيد لم يعد صاحب الكلمة في بيته ولم يعد أحد يسأله عن رأيه، وحتى عندما يدلي بدلوه في موضوع ما فإنه يشعر أن أحداً لا يستمع إلى ما يقول، ومما كان يجعل إهانته مضاعفة هو أنهم بعد استشاراتهم له كانوا يفعلون عكس ما كان يرتئي عليهم، ولهذا فقد كانت الفرصة الآن مواتية لاستعادة أمجاده المنصرمة وإصدار الأوامر واتخاذ القرارات.

توسلته هدى كثيراً أن يقبل وأكدت له أن نادر غير أمه ولكن يوسف أصر على رأيه ، وعندما أعلنت هدى عن امتعاضها قال لها:

-هذا رأيي بالموضوع ولن أغيره، ولك الحق في الاختيار بين والدك وبين هذا الشخص، فاختاري.

فكرت هدى طويلاً قبل أن تعلن عن اختيارها باكية، لقد قررت اختيار الأب، فإن فقدت نادر فإنها ستتمكن من نسيانه عبر الزمن، أما والدها فلن يعوض عنه أحد، كانت طوال عمرها بدون أب والآن بعد أن ظهر ستفعل أي شيء لكي تحافظ عليه، لن تعود مرة أخرى بدون أب، لقد جعلتها مشاعر يوسف الحقيقية تشعر أن والدها الحقيقي الذي مات قبل ولادتها لم يمت وإنما عاد من السفر.

انصرف نادر غاضباً وهدد يوسف بأنه سيقتله إن واجهه في مكان ما، كما أن هدى انصرفت إلى غرفتها في حالة من الأسى العميق.

عاد نادر في اليوم التالي ولم يكن يوسف موجوداً فتحدث مع هدى وأقنعها بالتراجع عن قرار البارحة، ولكي لا يترك مجالاً ليوسف بإفساد هذا التقدم فقد طلب من هدى أن يقوما سراً بكتب كتابهما فيضعان يوسف تحت الأمر الواقع، إلا أن يوسف حضر في الوقت المناسب قبل أن تتم هذه الخطة، وعندما شاهده قام بصفع هدى لأنها استقبلته ثم طرده من المنزل، وعندما خرج نادر وضع يوسف يده على قلبه وجلس على الكنبة بالكاد يلتقط أنفاسه، فقد كان يعاني من نقص تروية يجعله يشعر بالاختناق كلما انفعل زيادة عن اللزوم، وعندما شاهدته هدى يضع حبة الدواء تحت لسانه أدركت أنها لو فعلت كما طلب منها نادر لكانت قاتلة أبيها ولذلك فقد اتخذت قرارها النهائي بالتضحية بحبيبها في هذه المرة، فإن هو فقدها يمكن له أن يجد حبيبة أخرى والزمن كفيل بدمل الجراح، وعندما جاء نادر في اليوم الثالث طردته هدى شر طردة آملة أن يجعله ذلك يكرهها فيخفف من

معاناته في التخلص من حبها، إلا أنها كانت مخطئة في ذلك فقد كان نادر يعرف خير معرفة هدفها من ذلك، وازداد عذابه عشرات المرات إلا أن كرامته لم تعد تسمح له بالعودة بعد تمرغت بالوحل، فهو وإن كان يحب هدى ويعلم أنها تحبه غير أنه لم يكن ليسمح لأحد أن يعامله بهذه الطريقة، عذاب الفراق أسهل عليه من ذلك.

بارك يوسف خطوتها عندما أخبرته هدى بذلك، وعندما شاهد دموعها أكد لها أنها في المستقبل عندما تلتقي برجل يليق بها ستدرك مدى سخافة هذا الموضوع، وطلب منها أن تجهز الغداء له وللعمال الذين كانوا يضعون اللمسات الأخيرة على التصليحات التي قاموا بها.

في المساء اتصلت جلنار وأعلمته أنها اشترت بطاقة للسفر صباح الغد فأخبرها يوسف بأنها عندما تصل ستجد المأذون والشهود في انتظارها فطلبت منه جلنار تأجيل الموعد أسبوعاً على الأقل لكي تتمكن من

التقاط أنفاسها، ولكن يوسف قال بلهجة لا تخلو من نبرة استياء:

-ومن الذي يضمن أن نعيش أسبوعاً آخر؟

وقد أفحمت كلماته هذه جلنار على ما يبدو فوافقت.

اتفق يوسف مع هدى أن يفاجئ جلنار باستقبالها في محطة الباصات في اليوم التالي فتكون فرحتها مضاعفة وطلب منها أن لا تخبر والدتها بذلك إذا اتصلت مرة أخرى، ولكن هدى أخبرت والدتها بالأمر عندما اتصلت قبل منتصف الليل بقليل وطلبت منها أن تعتني بمظهرها لكي يراها يوسف على أفضل وجه، وقد وعدتها سعاد بذلك وأخبرتها بأنها اشترت ثوباً جديداً لهذا اللقاء خصيصاً، لقد كانت فرحة جلنار بذلك كبيرة جداً، فهذه أول مرة في حياتها يستقبلها فيها رجل في محطة الباصات، يستقبلها معلناً حبه وليس لكي يدلها على عنوان بيته الذي ستقوم بتنظيفه .

ليلا وأثناء نوم الجميع قام يوسف بقصّ جميع الورود الجورية من الشجيرات التي كانت تملأ منزله فتشكلت لديه باقة ضخمة من الورود الحمراء والبيضاء كان قد قرر تقديمها إلى جلنار عندما يستقبلها في محطة الباصات غداً.

في صباح اليوم اللاحق أخذ كمال مأذوناً وشاهداً آخر وذهب إلى منزل جلنار بتكليف من يوسف الذي حمل باقة الورد الجوري وذهب إلى محطة الباصات لاستقبال جلنار، وفي الساعة العاشرة عندما وصل الباص الذي يفترض أن تكون جلنار فيه تسرعت دقات قلب يوسف فوضع تحت لسانه حبة دواء تحسباً لنوبة قد تفسد عليه فرحته، وأخذ يتابع الركاب الذين كانوا يترجلون من الحافلة واحداً إثر الآخر، وكلما لاح شبح أحدهم خلف الزجاج القريب من الباب ظن يوسف أنها جلنار، ولكن الركاب جميعهم ترجلوا ولم تترجل جلنار ولذلك فقد همّ يوسف بالصعود إلى الحافلة للبحث عنها هناك

معتقداً أنها ربما تكون قد شاهدته من خلف الزجاج الأسود فقررت مداعبته، غير أن مساعد السائق أوقفه قائلاً:

-هذا ليس الباص المسافر.

أعلمه يوسف أنه ليس مسافراً وإنما يصعد للبحث عن زوجته فأعلمه مساعد السائق أن جميع الركاب ترجلوا وأن زوجته ليست في الباص، وعندما حاول يوسف أن يشرح له الأمر لوح المساعد له بيده دون اكتراث وقال:

-ليس عندي وقت لك ولزوجتك، ابحث عنها في باص آخر.

دخلت سعاد ترتدي ثوبها الجديد إلى منزلها الذي كادت ألا تعرفه لو أنها لم تكن واثقة من العنوان فما حصل فيه من تغيرات جعله منزلاً آخر تماماً، أخبرت هدى أمها أن المأذون والشهود في غرفة الضيوف وسألتها عن يوسف الذي ذهب لاستقبالها فأكدت سعاد

أن يوسف لم يكن موجوداً هناك وأنه ربما أخطأ الباص أو تأخر أو ربما لم يتمكنا من مشاهدة بعضهما البعض في هذا الازدحام، وعندما أخبرت هدى كمال بذلك أيد الفكرة وقرر أن يجهز مفاجأة سارة ليوسف فطلب من المأذون تحرير عقد الزواج طالماً أن الشهود موجودين والعروس موجودة، ونصّب نفسه وكيلاً للعريس لكي يكون العقد شرعياً في غياب العريس، ولم تمض دقائق إلا وكان الجميع قد قرءوا الفاتحة، ثم انصرف الشهود والمأذون وبقي كمال لكي يتمم مفاجأته لصديقه يوسف بالدعوة التي جهزها لهما إلى أحد مقاصف الربوة حيث حجز طاولة هناك.

ارتدت سعاد ثوب العرس وبقيت في الغرفة لكي لا يراها يوسف عند دخوله إلى المنزل حيث ستكون هذه أكبر مفاجأة له، وعندما عاد يوسف حاملا باقة الزهور التي كان يود تقديمها لجلنار في محطة الباصات، أخبر كلا من كمال وهدى بأن جلنار لم تكن في الحافلة

المذكورة وسأل إن كانت قد اتصلت فما كان من صديقه كمال إلا أن أخبره بالمفاجأة التي أعدها له وأعلمه بأن جلنار تنتظره في الغرفة، ثم طلب من هدى أن ترافقه في نزهة قصيرة قاصداً إخلاء الجو للعريسين للتمتع بخلوة طال انتظارها سبعة وأربعين عاماً، ولكن يوسف الذي فهم قصد صديقه طلب منهما البقاء وأعلم كمال أن الخلوة ستكون في اللاذقية لأنه غداً سيتوجه بصحبة زوجته جلنار إلى هناك لقضاء شهر العسل.

دخل يوسف إلى الغرفة التي كانت فيها سعاد فوجد امرأة في ثوب العرس ولكنها لم تكن جلنار، أما سعاد فقد كادت تصرخ لأن الشخص الذي دخل لم يكن بدر.

-أنت لستِ جلنار.

قال يوسف بلهجة مفعمة بخيبة الأمل.

-وأنت لستَ بدر.

ردت سعاد بلهجة لا تقل خيبة عن لهجة يوسف.

خرج الاثنان من الغرفة وعلى وجهيهما علامات حزن بدلاً من علامات الفرح التي كان كل من كمال وهدى ينتظران رؤيتها.

-هل هناك مشاكل؟

سأل كمال مستفسراً عن سبب الوجه المكفهر لكلا العروسين.

- الست سعاد ليست المرأة التي أبحث عنها، إنها ليست جلنار.

قال ذلك بكلمات يقطر الحزن من أطراف أحرفها مما جعل كمال يحاول التخفيف عنه فقال:

-لا بأس، لا بد أن الله عوضك عن جلنار بسعاد، هذه قسمتكما.

ولكن سعاد لم تقبل بهذا:

-لا .. لا .. أنا قبلت بالزواج ظنا مني أن يوسف هو بدر، أنا لست بحاجة إلى رجل، أنا بحاجة إلى بدر بالتحديد مع احترامي للسيد يوسف طبعاً.

- وأنا لست بحاجة إلى امرأة، غايتي هي جلنار حصراً مع احترامي للست سعاد طبعا.

- وما العمل الآن؟

سأل كمال بعد أن شعر أنه المسؤول عن هذا المأزق الذي كان يعتقد أنه سيكون مفاجأة سارة لكلا الطرفين.

-الطلاق.

قال كل من يوسف وسعاد معا ودون اتفاق، أما هدى فقد صرخت بخيبة من فقد حقاً من حقوقه المشروعة:

- وأنا؟

- أنت ما بك؟

سألتها أمها فأجابت:

-بسببكما ضاع مستقبلي.

ثم ذكرت لأمها ما حصل مع نادر فما كان من سعاد إلا أن وبخت يوسف الذي سمح لنفسه بالتدخل في شؤونهما الشخصية، ولم تنفع اعتذارات يوسف الذي أكدت له سعاد أنه حتى لو كان بدراً الذي ظنته إياه فإنها

لم تكن لتسمح له أن يتدخل في شؤون ابنتها بهذا الشكل، وعندما كان كمال يهم بفتح البوابة لكي ينصرف هو ويوسف قرع الجرس وظهرت المرأة السمينة من جديد، في هذه المرة لم تكن متعجرفة كما في المرة السابقة، كانت عيونها متورمة من البكاء وكلماتها متوسلة، طلبت من هدى أن تساعدها في تحديد الأماكن التي يمكن لنادر أن يتواجد بها ووعدتها بأنها ستبارك زواجهما، ولكن هدى لم تكن تعرف أين يمكن أن يكون فما كان منها إلا أن نظرت إلى يوسف نظرة قطة إلى قاتل أولادها، ورغم أنها لم تكن تملك مخالباً وكانت يداها مشغولتان بمسح الدموع إلا أن يوسف شعر أنها غرست مخالبها في وجهه، ولكي يكفر عن ذنبه فقد تعهد بالبحث عن الشاب الذي تسبب في ضياعه.

تمت إجراءات الطلاق بالسرعة نفسها التي تمت فيها إجراءات الزواج، وعاد قلب يوسف ليشوى على النار في جحيم جلنار المتأجج من جديد، ولم يتمكن يومها

أيضا من النوم، وفي صباح اليوم التالي قرر أن يعود إلى المبنى الذي دخلت إليه جلنار ويسأل في الشقة الثانية على الطابق الرابع، فلا بد أن جلنار تقطن في هذه الشقة، وكان قد نسي تماما قصة البحث عن الشاب المختفي متأكد من أنه سيظهر من جديد.

عندما انطلقت سيارة السرفيس في الطريق إلى بيت جلنار لم يستطع يوسف مقاومة النعاس الذي غلبه وجعله ينام بعمق، وعندما توقفت السيارة على المحطة اللاحقة صعدت جلنار إلى السيارة وجلست على المقعد الذي يجلس عليه يوسف، وبما أن يوسف كان يشخر فقد حاولت جلنار إيقاظه لكي يتوقف عن الشخير ولكن يوسف الذي كان قد ألقى برأسه إلى الخلف على مسند المقعد اكتفى بالاستناد به جانباً على زجاج النافذة وتوقف عن الشخير دون أن يفتح عينيه.

ترجلت جلنار على المحطة المطلوبة بينما تابع يوسف نومه في الحافلة التي تابعت خط سيرها، وفي

المحطة الأخيرة وجد السائق نفسه مضطراً لإيقاظ الراكب الذي لا يميز بين الفندق والسيارة، فعاد يوسف في سيارة أخرى انطلقت في الاتجاه المعاكس قاصداً المبنى من جديد، ولكنه أيضا لم يتمكن من مقاومة النعاس فغفا مرة أخرى، وفي المحطة الأخيرة أيقظه السائق الآخر فصرخ يوسف في وجهه غاضباً:

-لماذا لا تعلنون عندما تتوقفون في المحطات؟ في جميع دول العالم المتحضر يفعلون ذلك، متى نتخلص من هذا التخلف؟

ولكن السائق أعلن مستغرباً بأن صوته بُح لكثرة الإعلان عن أسماء المحطات، فتركه يوسف غير عابئ بشرحه وصعد إلى سيارة جديدة على أهبة الانطلاق إلى هناك وطلب من السائق أن يوقظه على المحطة المطلوبة إذا حدث ونام أثناء الرحلة، إلا أن يوسف تمكن من الصمود أمام النعاس في هذه المرة وترجل على المحطة المطلوبة دون مساعدة أحد.

صعد يوسف إلى الطابق الخامس ثم ترجل إلى الطابق الرابع على الدرج، وعلى الفور قرع جرس الشقة الثانية، وعندما مرت عدة ثوان لم يفتح خلالها أحد الباب قرع يوسف الجرس مرة ثانية، ولكن أحداً في هذه المرة أيضا لم يفتح مما أثار غضب يوسف الذي وضع يده على الجرس ولم ينزعه إلا عندما سمع من الخلف صوت رجل يسأله عما يريد فأجابه بأنه يبحث عن امرأة قريبة له وكرر قصة الإرث، فأعلمه الرجل أن المرأة قد رحلت من هنا وأنه للتو قد ساعدها في نقل حقيبتها إلى الأسفل.

قفز يوسف إلى قرص الدرج ونظر من الكوة المطلة على الشارع فوجد سيارة تكسي متوقفة في الأسفل وقد رفع غطاء محركها وحشر السائق جذعه نحو الداخل يصلح عطلاً ما، وكانت جلنار تقف قرب السيارة، لم يصدق يوسف عينيه، لقد حانت الفرصة أخيراً، لا بد أن قدرة إلهية هي التي عطلت السيارة لكي يتمكن يوسف من اللحاق بجلنار، وبدون تفكير أخذ يوسف يتقافز على

الدرج نحو الأسفل غير عابئ بسنه التي لا تسمح له بمثل هذا النشاط الزائد ولا بنقص التروية التي يعاني منها قلبه، وكاد يصل إلى الطابق الأول عندما اعترض طريقه شخصان يحملان إلى الأعلى سريراً خشبياً واسعاً سد عليه طريقه، وبدون جدوى حاول يوسف تجاوزهما، وعندما حاول حشر نفسه علق بين الحائط والسرير وكادت أمعاءه تخرج من فمه عندما حرك الرجلان السرير مما اضطره للعودة وإفساح الطريق لهما.

خرج يوسف من المبنى فلم يجد السيارة، كانت قد انطلقت دون أن يرى حتى الوجهة التي ذهبت إليها، ورغم أنه رجل غير انفعالي إلا أن يوسف خرج من جلده هذه المرة فأنّ بأعلى صوته أنينا لفتت انتباه المارة، ثم عاد إلى الطابق الرابع وقرع باب الشقة الأولى التي دخل إليها الرجل فسأله إن كان يعرف إلى أين توجهت جلنار، ولكن الرجل أوضح له أنه لا يعرف شيئاً عن هذه المرأة وأنها قد استأجرت هذه الشقة منذ زمن غير بعيد، ويبدو

أنها تركتها اليوم، سأله يوسف عن صاحب الشقة آملا في معرفة اسمها على الأقل، فلا بد أنه مدون في عقد الإيجار، فإن عرف اسمها الحقيقي فإنه سيتمكن من العثور عليها بمساعدة الشرطة، وفي أسوأ الأحوال فإنه سيعلن عن ذلك في الجريدة، وعندما أعطاه الرجل عنوان صاحب الشقة توجه يوسف إلى هناك على الفور.

قرع يوسف باب منزل صاحب الشقة عدة مرات فلم يفتحه أحد، وعاد في المساء فلم يجد أحدا مما اضطره للعودة في صباح اليوم التالي، وعندما فتح له صاحب الشقة الباب في اليوم التالي سأله يوسف عن العقد فأعلمه الرجل أنه قد مزقه وألقى به في القمامة كما يفعل مع أي عقد تنتهي مدته، كاد يوسف يوجه له لكمة ترميه أرضاً وتشوه خلقته، ولكنه لم يفعل ذلك لأنه كان يعرف أن لا جدوى من هذه العملية، ثم عاد أدراجه وقد استسلم لمصيره المحتوم.

لم يكن عذاب يوسف هذه المرة نابعاً من كونه لم يعثر على جلنار، ولكن لأنه فقد الخيط الذي يمكن أن يرشده إليها، فقد كان المبنى هو نقطة العلاّم الوحيدة التي يمكن لجلنار أن تتوجه إليها، كان ذلك المبنى يولّد في نفسه الأمل، فعندما يعجز عن البحث كان بإمكانه أن يرابط هناك لعل جلنار تدخل أو تخرج، ولو أنه لم يشاهدها ترحل البارحة لربما كان عذابه أقل بكثير مما هو عليه اليوم، فلو أنه لم يعرف برحيلها لتابع مرابطته هناك يمط أمله بقدومها في اليوم التالي، أما وقد شهد رحيلها فإن هذا الأمل قد انقطع تماما، ولم يعد هناك مجال لكي يمني نفسه بأمل كاذب.

بعد هذا الرحيل الأخير لجلنار تغيرت حياة يوسف تماما، فقد شهيته كلياً ونحل جسمه واعتزل في غرفته لا يكلم أحداً وعبثاً حاول ابنه وأحفاده وصديقه كمال إخراجه من هذا الجو، وعندما أصيب بنوبة قلبية حادة كادت تكون الأخيرة في حياته ونقل على إثرها إلى المشفى

شعر يوسف بقيمة الحياة قليلاً، وأخذ يجبر نفسه على الطعام ويحاول جاهداً النوم في المواعيد المحددة وأخذ ينسى جلنار تدريجيا، وبعد مرور ثلاثة أشهر كاد يوسف ينساها تماما ويعود إلى متابعة نشرات الأخبار والتردد على المقهى كما كان يفعل في السابق، ولكنه ذات ليلة عندما كان يتابع برنامجاً في التلفزيون كان مراسلوه يجرون في الشارع استفتاء حول موضوع ما، هب من مكانه وصاح بصوت عال مفعم بالمفاجأة:

-هي... هي.. جلنار.

فقد كانت جلنار واحدة من المواطنين الذين تم سؤالهم في ذلك الشارع، وعندما شاهدها يوسف عاد إليه الأمل في العثور عليها من جديد، وشعر أنه على وشك اللقاء بها، ليس ذلك صدفة، إن قدرة خفية هي التي جعلت المراسل يستوقفها هي حصراً لسؤالها عما يريده، عشرات المارة كانوا يعبرون الشارع ولكن المراسل اختارها بدفع من هذه القوة الخفية لكي يشاهدها يوسف ويعثر

على الخيط الذي يوصله إليها، ثم أنه لأول مرة منذ عشر سنين يشاهد برنامجاً غير النشرة الإخبارية فما الذي دفعه لذلك؟ إنها القوة الخفية نفسها، لكي يشاهد جلنار ولا يفقد الأمل بالعثور عليها كل شيء واضح تماماً، القدر يمازح يوسف ولكنه لا يريد أن يحرمه من جلنار نهائياً،فهو يذكّره بها دائماً كلما دفعها الزمن إلى المساحات الخلفية المظلمة في ذاكرته.

توجه يوسف في الصباح إلى مبنى الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون، وتمكن من اللقاء مع مخرج البرنامج الذي أجرى الاستفتاء، وعندما علم المخرج غاية يوسف أخبره بأنه لا يعرف اسمها وأن البرنامج لا يطلب عناوين الناس الذين يلتقيهم في الشارع فطلب منه يوسف أن يعطيه نسخة عن اللقاء الذي حصل مع جلنار ممنياً النفس بأنه بهذا الشكل سيتمكن من رؤية وجهها كل يوم عبر جهاز الفيديو، ولكن المخرج رفض ذلك بحجة أن هذه وثيقة أرشيفية لا يمكنه أن يعطي نسخة عنها لأحد

دون موافقة رسمية، وعبثاً حاول يوسف فيما بعد الحصول على هذه الموافقة، فالحجج التي ذكرها كانت غير مقنعة، وخاف من قول الحقيقة لكي لا يعتقدون أنه مصاب بالجنون.

حجم الصدمة في هذه المرة لم يكن يوازي حجمها عندما فقد يوسف جلنار في المرة الأولى إلا أن الحياة كانت قد فقدت طعمها نهائياً، كان يأكل ويشرب كالمعتاد ولكن جميع أنواع الأكل كانت قد اكتسبت طعم التراب، وجميع أنواع الشراب كانت قد اكتسبت طعم الهواء، أخذ يوسف يعد ما تبقى له من الأيام منتظراً خاتمة المطاف، لم يعد يعيش حبا بالحياة، ولكنه لم ينتحر لكي لا يعذب الناس الذين حوله، أصبح يستمع إلى نشرات الأخبار دون أن ينتبه لأي خبر منها، كان شارد الذهن بشكل دائم، كما أنه قطع زياراته إلى المقهى، وانقطع عن تناول الأدوية الموصوفة له آملاً أن تخلصه نوبة من النوبات

من هذه الحياة التي أصبحت ثقيلة ولم يعد لها معنى أبداً في نظره.

ذات مساء بينما كان يوسف يجلس في الليوان في باحة منزله قرع الجرس فنهض معتقداً أن أحد أصدقائه جاء للسؤال عنه وطلب من حفيدته أن تقول أنه غير موجود في المنزل إذا ما كان الطارق يقصده هو ثم دخل إلى غرفته، لقد كان يوسف مصاباً بالاكتئاب وليس له القدرة أبداً على احتمال أي ضيف مهما كانت العلاقة التي تربطه به فكل الضيوف الآن ثقلاء على نفسه.

فتحت حفيدته الباب فرأت امرأة يبدو أنها في الستينات من العمر ولكنها كانت في غاية الجمال، لم يكن التقدم في السن قد أثر فيها أبداً، لقد كانت جلنار هي هذه المرأة، وقد جاءت إليه على قدميها.

عرّفت جلنار عن نفسها بأنها امرأة تعمل في جمعية خيرية تساعد الأيتام، وأنها تبيع بعض الصناعات اليدوية

لصالح هذه الجمعية فطلبت منها حفيدة يوسف الدخول مرحبة بها، وقادتها إلى غرفة الضيوف.

تجمع كل أفراد الأسرة في غرفة الضيوف ما عدا يوسف الذي أغلق غرفته واستلقى على سريره وأخذ يحدّق في السقف وقد شرد ذهنه في فراغ اللاشيء، فتحت جلنار حقيبتها وعرضت ما في داخلها فكانت تحتوي على مناديل ومحارم جيب ومطرزات مختلفة وأشياء كثيرة أخرى، ومن بين الأشياء التي كانت في الحقيبة بعض المسابح التي لفتت نظر ابن يوسف، فقد كانت مصنوعة من الزجاج الملون ببراعة متناهية، مما دفعه لإرسال ابنته في طلب جدها لكي يأتي وينتقي منها ما يريد، فقد كان يوسف مولعاً بالمسابح لدرجة كبيرة.

عندما أخبرته حفيدته بأمر المسابح نهض يوسف من فراشه دون حماس وهم بمغادرة الغرفة في طريقه إلى غرفة الضيوف لكي يشاهد هذه المسابح، ولكنه في اللحظة الأخيرة غير رأيه وناول النقود لحفيدته طالباً منها

أن تنتقي ما يعجبها، وعندما طلبت منه حفيدته أن يعاين المسابح بنفسه قال أنه يثق بما تنتقيه فمازحته قائلة:

-هناك امرأة في غاية الجمال، قد تنتقيها عروساً لك بدلاً من المسبحة.

ولكن هذه الدعابة لم تعجب يوسف الذي أشار لحفيدته بقفا يده أن تغادر الغرفة وأغلق خلفها الباب محدثاً نفسه،(لا نساء بعد جلنار فليذهبن جميعا إلى جهنم الحمراء إن لم يكنَّ جلنار) .

انصرفت جلنار بعد أن باعت ما باعته، وأخذ يوسف المسابح وألقى بها في درج الخزانة الذي تجمع فيه الكثير منها.

لم يفقد يوسف الأمل نهائياً فقد ظل بين الحين والآخر يتردد إلى ذلك المبنى ويقف ساعات طويلة مراقباً المدخل، إلا أن جميع آماله كانت زائفة، فهو يعرف تماماً أن جلنار قد غادرت المبنى نهائياً، ولكنه لم يكن يتوصل إلى هذه النتيجة إلا بعد أن يشعر في المساء بألم حاد في

رجليه نتيجة وقوفه طوال اليوم قبالة المبنى، غير أن الأمل لديه كان يتجدد في صباح اليوم التالي بعد أن يكون قد نال قسطاً من الراحة فيتوجه لمراقبة مدخل ذلك المبنى دون وعي منه.

الذي أزعجه أيضاً هو أن جلنار لم تعد تتردد عليه في الحلم، كانت كما لو أنها رحلت من أحلامه أيضاً، لم يعد يراها إلا في حالة الوعي التام عندما يُعمل ذاكرته ويستدعيها من أرشيفه الخاص، ولكن ذلك كله لم يكن له نكهة مع ضياعها في الواقع الملموس فقد كان يوسف يريد جلنار لا شبح جلنار أو صورتها التي كانت تبهت يوماً بعد يوم في ذاكرته المتعبة، كان يريد جلنار بلحمها ودمها، ولا شيء يعوض ذلك.

في الشتاء كان يوسف يقضي بعض أوقاته في دكان في الحي الذي يسكنه، حيث كان يقتل الوقت مع إسماعيل صاحب الدكان الذي كان زميلاً له في المدرسة ذات يوم، وكان عادة يجلس على كرسي خشبي منخفض

ويدير ظهره إلى باب الدكان غير مهتم بالزبائن الذين كانوا يترددون على إسماعيل. والذي كان يغريه في الجلوس في دكان إسماعيل هو الطريقة الشيقة التي يروي إسماعيل بها أحاديثه، حيث يفتح باب الخيال وينطلق بحرية كاملة غير آبه إن كان ما يرويه ينتمي إلى عالم المعقول أم عالم اللامعقول وكان دائماً عندما يتحدث لا ينظر في عيني محدثه خشية أن يلحظ دهشته التي تدل على أنه لا يصدق ما يسمع فيصاب إسماعيل بالإرباك وتختل حبكته، وكان على الدوام يراقب باب الدكان بينما يجلس محدثه مديراً ظهره إلى الخارج، وذات مرة وبينما كان إسماعيل يروي إحدى قصصه التي كانت تنتمي إلى عالم اللامعقول وقفت بباب الدكان امرأة أخذت تتأمل الأشياء الموضوعة في الواجهة باحثة عن غرض ربما أرادت شراءه، ولشدة إعجابه بجمالها فقد صمت إسماعيل وأخذ يحدق بالمرأة قاضماً طرف شاربه الأيسر كما يفعل

دائماً في لحظات الانفعال، وعندما سأله يوسف عن سبب صمته وخزه وقال هامساً:

-انظر إلى الخلف، امرأة ليست من ضلع آدم.

وكانت هذه عبارة يدلل بها عادة على إعجابه الشديد بامرأة ما، ولكن يوسف رفض النظر إلى الخلف،ولم يكترث لتلك المرأة أبداً، لقد قرر أنه لن ينظر إلا إلى جلنار، ومهما بلغت النساء من الجمال فإنهن لن يحصلن على المكانة المخصصة لجلنار في قلبه، كان قد فقد الاهتمام بالنساء جميعاً، فليس على وجه البسيطة سوى امرأة واحدة هي جلنار، أما البقية فهن مخلوقات على شكل نساء، ولذلك فقد سخر من إسماعيل وطلب منه متابعة الحديث:

-أكمل لنا القصة، فلن ينوبك من النظر إلى النساء سوى حرقة القلب.

ولكن إسماعيل أصر على متابعة النظر إلى المرأة إلى أن انصرفت بعد أن شاهدت محتويات الواجهة التي يبدو

أنها لم تعثر على مبتغاها بينها، وبعد انصرافها صارح يوسف قائلا:

-خسارة، لقد فاتتك رؤية امرأة ليست كالنساء.

ولم يجب يوسف على تحسر إسماعيل وفكر في دخيلته (لو أنه شاهد جلنار لعرف كيف تكون المرأة التي ليست من ضلع آدم، لن أنظر إلاّ إلى جلنار)، ولم يخطر في بال يوسف أبدا أن إسماعيل إنما كان بالفعل يحدثه عن جلنار وليس عن امرأة أخرى، ومن غير المعروف إن كان القدر الأحمق هو الذي دفع يوسف لعدم النظر إلى الخلف أم أن يوسف شخصياً هو الأحمق، فماذا يخسر هذا المعتوه لو نظر إلى الخلف؟ لقد كانت تفصله عن جلنار التفاتة صغيرة إلى الوراء، وبالتأكيد فإن يوسف هو الأحمق فالقدر فعل كل ما يستطيع فعله فهو دائماً يحضرها إليه ولكن يوسف لا يقوم بفعل واحد لمساعدة القدر، فهل يريد منه أن يحملها له على راحتيه ويضعها في حضنه؟ إن هذا غير معقول، لقد جعلها تتوقف خلفه

لعدة دقائق وسخّر له إسماعيل لكي يلفت انتباهه ولكن عبثاً، إنه لا يختلف بشيء عن شقيق الملك الذي كان أفقر الرعية في مملكة أخيه فقام عدد من الحكماء بلفت نظر الملك لهذا منوهين إلى أنه لا يجوز أن يكون شقيق الملك على هذه الحال فقال لهم:

-لقد فعلت كل ما في وسعي لكي أخرجه من هذه الحالة المزرية ولكن دون جدوى، ولكي أثبت لكم ذلك سأضع له صرّة من الذهب في طريقه لكي يعثر عليها ويستفيد منها في تحسين أوضاعه.

وبالفعل فقد ذهب الملك والحكماء باتجاه منزل شقيق الملك وعندما شاهدوه قادماً من البعيد قاموا بوضع الصرّة المليئة بالذهب على جسر ضيق سيمر من فوقه بحيث لا يمكن له ألّا يرى تلك الصرّة، واختفوا ليروا ماذا سيحدث، وعندما وصل شقيق الملك إلى الجسر قرر أن يختبر نفسه إن كان قادراً على عبور الجسر مغمض العينين فنزع شاله عن كتفيه وعصب عينية وتابع طريقه

متجاوزاً صرّة الذهب دون أن يراها، لا بد أن شقيق الملك هذا اسمه يوسف أيضاً.

بعد انصرافها من أمام الدكان توجهت جلنار إلى منزل يوسف، حيث باعت عددا من الأغراض لزوجة ابنه ولجاراتها اللواتي تجمعن عندها، وعندما دخل يوسف إلى المنزل كانت جلنار في غرفة الضيوف ولكنه حاد ببصره عن باب غرفة الضيوف التي كانت جلنار جالسة في صدرها، فهو قد أصبح يكره النساء بعد جلنار وأخذ يبدي امتعاضه من هذه الاجتماعات التي تجريها كنته مما جعل هذه الاجتماعات لاحقا تنتقل إلى بيت الجيران.

فشلت جميع محاولات يوسف بالخروج من فلك جلنار، فإن كانت قد خرجت من المبنى الذي كانت تسكن فيه ومن أحلامه فإنها لم تخرج من عقله وقلبه، كان كل نشاطه الذهني محصوراً بها كليا، فحين يحدثه أحد ما يسمع ربع الحديث وعندما ينظر في وجهك لا يراك لأن ذهنه شارد في صورة جلنار، وعندما يتناول

طعامه فإنه لا يقوم بأكثر من عملية اجترار، ولأنه لم يعد يطيق الحياة بهذا الشكل فقد قرر متابعة البحث بوسائل أخرى، فإما يجدها وإما يسلم الروح وهو يبحث عنها، فبهذا الشكل يبقى على الأقل في دائرة الأمل .

قرر أن يبدأ بحثه من البيت الذي كانت تسكنه جلنار عندما رآها قبل سبعة وأربعين عاما تقف في النافذة مرتدية ثوبا أحمر.

ذهب إلى ذلك المنزل وسأل أصحابه الجدد عن اسم مالكيه القدامى الذين اشتروا البيت منهم، ثم ذهب إلى أصحابه السابقين وسألهم متى اشتروه فدلوه على مالكيه السابقين، وهكذا إلى أن وصل إلى عائلة الشخص الذي كان يملك البيت قبل سبع وأربعين عاماً.

تنفس يوسف الصعداء لأنه تمكن أخيراً من حل هذه المعضلة، وكم لام نفسه على غبائه، فلو أنه فعل ذلك منذ البداية لما تعذب هذا العذاب، ولكن لا بأس فالمهم أنه عثر على أسرة جلنار، غير أنه كان مخطئاً تماماً في

تفكيره، فالذين كانوا يسكنون البيت في ذلك الزمن لم يكونوا أصحابه وإنما كانوا مستأجرين، هذا ما أبلغه به الشخص الذي فتح له الباب في العنوان الذي ذهب إليه، وعندما سأله يوسف إن كان يعرف شيئاً مع هؤلاء المستأجرين قال الرجل بأنه لا يعرف شيئا وأن والده ووالدته فقط هما اللذان يعرفان تلك الأسرة، أما هو فقد كان طفلاً آنذاك، وعندما طلب يوسف عنوان أهله قال له الرجل:

-أرجو أن يجمعك الله بهما في جنات النعيم، رحمة الله عليهما.

من جديد وصل يوسف إلى طريق مسدود بعد أن ظن نفسه أنه قد أمسك بطرف الخيط الذي يوصله إلى جلنار، وتمنى لو أن سلسلة مالكي هذا البيت لم تنته قبل نهاية حياته لكي لا ينتهي أمله في العثور على جلنار وهو لا يزال على قيد الحياة، إن ذلك لا يطاق، ولهذا فقد أخذ يفكر في طريقة أخرى تحيي ذلك الأمل، لم يعد

هدفه العثور على جلنار الآن، لقد أصبح هدفه خلق فسحة من الأمل في العثور عليها، كان ذلك يكفي لكي يكون مبرراً لوجوده، أما بدون ذلك فقد كان يصعب عليه التكهن بأي شكل وأي طريقة سيتمكن من متابعة الحياة.

فكر يوسف سبعة أيام بلياليها فلم يصل إلى حل، ولذلك فقد سلم نفسه إلى اللاوعي الذي قاده إلى المبنى الذي كانت تقطنه جلنار حيث انتظر هناك عدة ساعات وعاد إلى المنزل وتابع تفكيره، ومرة أخرى انغمس بالتفكير سبعة أيام بلياليها ولم يصل إلى حل معقول، وعندما عجز يوسف عن إيجاد خيط يقوده إلى جلنار قرر أن يفتش حارات وبيوت دمشق بيتاً بيتاً.

أمضى يوسف عاماً كاملاً متنقلاً بين شوارع وحارات دمشق دون أن يصل إلى نتيجة، وساد اعتقاد لدى المحيطين به أنه يفقد عقله، حيث كان يخرج من البيت صباحا ولا يعود إلا في ساعة متأخرة من الليل ولذلك فقد عقد أهل بيته اجتماعاً بحثوا فيه وضعه وقرروا

إخراجه من هذه الحالة التي هو فيها، وكان سبب حالته هذه باعتقادهم هو إهمالهم له وعدم اهتمامهم به، ولذلك فقد قرروا أخذه في نزهة إلى البرية كخطوة أولى من الخطوات التي قرروا إجراءها لإعادة يوسف إلى عقله وتمتين الروابط الأسرية داخل العائلة.

وفي صباح يوم عطلة توجه الجميع إلى منطقة خضراء على طريق دمشق بيروت، وعندما ترجل الجميع من سيارة الأجرة على حافة الطريق وأخذوا يناولون بعضهم البعض أغراض النزهة توقف باص شعبي متوجه من دمشق إلى بيروت على يمين الطريق لإنزال بعض الركاب الذين انصرفوا بعد أن ترجلوا منه باتجاه مفرق إحدى القرى القريبة من الطريق العام، ونظر يوسف صدفة إلى الباص فلمح جلنار تجلس خلف زجاج إحدى نوافذه فرمى الأمتعة التي كان يتناولها من حفيدته وتوجه راكضا نحوه.

تحرك الباص قبل أن يبلغه يوسف فلم يجد أمامه مخرجاً سوى التوقف وسط الطريق واعتراض سيارة متوجهة في نفس الاتجاه الذي انطلق فيه الباص فكادت تدهسه، صعد إلى جانب السائق الغاضب وأمره باللحاق بالباص لأن القضية قضية حياة أو موت كما شرح له ولم يعر غضبه أي اهتمام.

وبسبب اللهفة التي كان يتحدث بها يوسف فقد تفهم السائق دوافعه رغم أنه كان يجهلها تماما وحاول اللحاق بذلك الباص، إلا أن محرك سيارته القديمة الذي لم يكن يوازي محرك ذلك الباص جعله عاجزاً عن أداء هذه المهمة فأخذت المسافة بين السيارة والباص تتسع إلى أن كاد يوسف يفقد الأمل في اللحاق به، وكال اللوم على الرجل لأنه يحتفظ بمثل هذه السيارة المهترئة:

-فككها وبعها على شكل خردة، هذه ليست سيارة، الحمار أسرع منها.

وحين أفهمه السائق أنه قد تجاوز النقطة التي هو متوجه إليها رجاه يوسف أن يتابع سيره راجيا من الله أن يحفظ له أولاده وزوجته فرضخ السائق لتوسلاته على مضض، وحين لمح يوسف الباص يتوقف إلى يمين الطريق مرة أخرى انبعث الأمل في قلبه من جديد وحض السائق أن يدوس على مكبس البنزين ، وبالفعل فقد وصلت السيارة التي يستقلها يوسف إلى خلف الباص قبل أن يتحرك، غير أنه ما إن ترجل من السيارة حتى شاهد الدخان يتصاعد من مدخنة الباص وعجلاته تتحرك ببطئ للخروج من المساحة الترابية المحاذية للطريق إلى الإسفلت فأدرك يوسف أن الباص قد أغلق أبوابه وأنه لن يتمكن من الصعود إليه ولذلك فقد قرر أن يتعلق بالسلم الخلفي على أن يترجل في المحطة القادمة ويصعد إلى الباص، وهذا ما فعله، وعندما انطلق الباص أخذ يوسف يحدق عبر زجاج نافذته الخلفية باحثا عن جلنار بين الركاب ولم يكن يتوقع أبداً أن جلنار كانت قد ترجلت من

الباب الأمامي للباص على نفس المحطة التي تعلق فيها هو بالسلم ولم يلمحها لأنه كان يبحث عنها بعينيه داخل الباص من خلف الزجاج.

أما جلنار فقد عادت في نفس السيارة التي كان يستقلها يوسف إلى أقرب محطة يمكنها أن تستقل بها سيارة لكي تعود إلى دمشق حيث كانت قد نسيت وثائقها اللازمة للسفر إلى بيروت في المنزل، كما شرحت ذلك للسائق.

عندما توقف الباص على الحدود السورية اللبنانية ترجل يوسف بسرعة عن السلم الخلفي وصعد إلى الباص لكي يبحث عن جلنار قبل أن تترجل فيفقدها في الزحمة من جديد، وحين وجد رجلاً يجلس في المكان الذي كانت جلنار تشغله عندما شاهدها من الزجاج ولم يعثر عليها بين الركاب في المقاعد الأخرى تأكد يوسف أن جلنار ليست سوى جنية تحاول إيصاله إلى الجنون وأمسك بالرجل الذي كان يجلس مكان جلنار وأخذ يهزه مبسملاً

لكي يرى إن كان جنياً أم إنسياً، حيث كان يُفترض أن يختفي بعد البسملة حسب بعض الاعتقادات إن كان جنياً، أما الرجل فلم يفهم ما هو الموضوع واعتقد أن يوسف معتوه لا أكثر فدفعه إلى الخلف برفق وترجل لإجراء معاملات الحدود، وفي هذه الأثناء صعد إلى الباص ابن يوسف الذي لحق به في سيارة أخرى وشده من ذراعه ثم أنزله عنوة واستقل معه سيارة عائدة إلى دمشق.

ولكن قناعة يوسف بأن جلنار ليست سوى جنية سلطها أحدهم عليه لتتكل به لم تكن لتثنيه عن عزمه في البحث عنها، فقد بلغ يوسف الخامسة والثمانين من العمر دون أن يتوقف عن البحث عن جلنار طوال ساعات النهار في شوارع وحارات دمشق، وحتى عندما أرهقه المرض ونقلوه إلى المشفى محتضراً يعاني سكرات الموت كان يوسف لا يزال يطمح إلى العثور عليها، وعندما ظن الجميع أنه فقد الوعي لم يكن يوسف كذلك بالفعل وإنما

كان قد سخّر كل طاقات وعيه للعثور على طريقة يلتقي بها جلنار، ففي الوقت الذي كان فيه جسداً خامداً كان داخل رأسه بحراً صاخباً مضطرباً تتزلج جلنار فوق أمواجه المتلاطمة، كان يوسف يدرك تماماً أن قدماه ما عادتا قادرتان على حمله للبحث على جلنار وأن لقاءهما في هذه الدنيا لم يعد واردا، ولكن الذي كان يشغل باله هو لقاء الآخرة فقد كان جل ما يخشاه أن تدخل جلنار إلى النار فلا يلتقي بها في الآخرة أيضا، فهو لسبب ما كان واثقا أنه سيدخل الجنة، وكان يتألم لأنه لا يستطيع تحديد مصير جلنار، فلو أنه كان متأكداً أن جلنار مصيرها إلى النار لاستجمع قواه المتبقية ونهض من غيبوبته وارتكب إثماً يودي به إلى جهنم، ولكنه لا يستطيع فعل هذا دون أن يكون متأكداً فيرتكب بذلك حماقة لا تغتفر إن كانت جلنار ستدخل إلى الجنة.

أما جلنار فقد خطرت أمام باب العنبر الذي كان يوسف يرقد فوق أحد أسرته، وذات مرة ألقت التحية على

حفيدته التي كانت تجلس قرب رأسه وتمنت لجدها الشفاء وانصرفت، وعندما سمع يوسف صوتها فكر طويلاً قبل أن يفتح عينيه ليتأكد، وعندما فتحهما كانت جلنار قد انصرفت، فظن أن ذلك تهيأ ولذلك لم يفتحهما في المرات اللاحقة عندما دخلت جلنار وجلست قرب سريره تتبادل الأحاديث مع حفيدته.

وذات ليلة وحين كان الجميع نياماً إلا يوسف تمكنت الأمواج التي كانت تتلاطم في وعي يوسف من تحطيم آخر تحصينات عقله، فنهض ونزع من شريانه الإبرة التي كانت تزوده بالمصل الذي يؤهله البقاء على قيد الحياة، ثم نهض وخرج للبحث عن جلنار، وكانت هذه آخر مرة شوهد فيها يوسف على قيد العقل، حيث أنه أخذ يطرق الأبواب ليلاً ويسأل عن جلنار، وعندما عجز أولاده عن سجنه في منزله الذي كان دائماً يجد طريقة للهرب منه لمتابعة البحث لم يعد أمامهم مخرجاً من

إيداعه في مشفى الأمراض العقلية الذي تمكن من الهرب منه أيضا ليتابع تمشيط دمشق بحثاً عن جلنار.

لا الأمم المتحدة
ولا مجلس الأمن
ولا حلف شمال الأطلسي
ولا أياً كان
يستطيع أن يطرد تلك المرأة
من ذاكرة هذا الرجل.

هذا الكتاب

قصة حب دامية تنساب بشفافية ضوء قمر ربيعي، وتعبر شرايين عاشق على مـــدى عمـــره المـــترع بالشوق للقاء مستحيل .

كان قلم المؤلف يطرح دماً ولوعة، بحيث استطاع أن يلامس أدق المشاعر جمالاً، ويوقظها في أشـــد اللحظات صمتاً، فتتوقف أنفاسنا وعيوننا تطـــارد السطور، فتندفع آهاتنا الحرّى جملة مع الخيبـــات المتكررة في رحلة البحث عن الحبيب .

الناشر

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة
دمشق ص.ب ٣٠٥٩٨
هاتف : ٥٦١٧٠٧١
فاكس : ٥٦١٣٢٤١